عمران المدينة المنورة
في عصر سلاطين المماليك
(٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

دكتور: يسري أحمد زيدان
الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تمهيد:

أولى سلاطين المماليك، وأمراؤهم، وكافة أفراد الأمة الإسلامية في عصر سلاطين المماليك اهتمامًا عظيمًا بمدينة النبي ﷺ، التي توسعت في عهدهم، وزيد في عمرانها زيادة ملحوظة في عصرهم.

ومن مظاهر الاهتمام بالمدينة الشريفة: الرعاية الكاملة لمسجد النبي ﷺ، والقيام بشأنه قيامًا تامًا، تناول كل أوجه عمارته، وإنارته، وفرشه، والاهتمام بالحجرة الشريفة، ومن هذه المظاهر العناية التامة بمساجد المدينة الشريفة الأخرى، والتوسع في إنشاء المدارس والربط، واحتفار الآبار وتجديد العيون، وتوفير الماء اللازم لأهل المدينة المباركة، وكذلك تمهيد الطرق، والاهتمام بسورها وخندقها، وإقامة الحمامات لها، ثم الوقف المناسب لإقامة كل المشروعات السابقة.

وامتد الاهتمام بالمدينة المنورة، فشمل المحافظة على الصحة العامة بالاهتمام بالبيمارستانات، وتوفير احتياجاته اللازمة لعلاج المرضى، فضلاً عن توفير الأجواء والظروف المناسبة لإقامة المشروعات الزراعية. وقد شهدت المدينة المنورة في عصر المماليك استقرارًا وأمانًا ورخاءً في أغلب فترات هذا العصر، وهو ما سوف يتضح من خلال هذا البحث.

أولاً: عمران المسجد النبوي في عصر سلاطين المماليك:

شهد المسجد النبوي في عصر سلاطين المماليك عمرانًا واسع النطاق، متعدد الجوانب، حسن الصورة، ساهم فيه العديد من سلاطين المماليك، وفي ذلك يقول السمهودي: «ولم يزل ملوكها - مصر - يهتمون بعمارة هذا المسجد الشريف، ومن أعظمهم همة في ذلك، وأحبهم في سلوك هذه المسالك، سلطان زماننا الملك المالك لصفوة الممالك الأشرف أبو النصر قايتباي»[1].

وتضمن هذا العمران عدة أمور، بعضها متصل بإصلاح المسجد وتجديده، وبعضها مختص بتوسعته والزيادة فيه، وبعضها متعلق بإنارته وإضاءته، إلى غير ذلك من مظاهر عمارة المسجد النبوي والحفاظ على صورته الوضيئة.

١- إصلاح وتجديد المسجد النبوي:

تعرض المسجد النبوي المبارك في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م لحريق هائل[2] ابتدأ من زاوية الحرم الشريف الغربية من الشمال، وسبب الحريق اتصال نار يحملها أحد قوّام المسجد الشريف ببعض آلات إحدى خزائن المسجد النبوي، ووصول

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥، وراجع ص ٢٣٥.

(٢) تضمن كتاب «وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٠ - ١٥٢» للسمهودي عدة حكم لوقوع هذا الحريق منها: أن إمرة المدينة النبوية وقضاءها وخطبتها كانت في ذلك الوقت للشيعة، وأن هذا الحريق حدث بعد ظهور نار الحجاز التي أنذر بها النبي ﷺ، والتي ظهرت في السنة نفسها، وبقيت أياماً، وأطفأها الله تعالى عند وصولها إلى حرمه، فحتى لا يظن أن حبس النار عن أهل المدينة ببركة الجوار موجب لحبسها عنهم في الآخرة، حدث ما حدث. ومنها الإيمان بقدرة الله وعظمته، وقهره لكل شيء إلى غير ذلك من حكم دفعت القطب القسطلاني إلى تأليف كتاب «عروة التوثيق في النار والحريق»، وعن نار الحجاز راجع: أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٩٤، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٩٨، والعيني: عقد الجمان جـ١ ص١٢٢ - ١٣٠، والسمهودي: وفاء الوفا جـ١ ص ١١٣ - ١٢٢، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٧ ص٤٥٤، وتجدر الإشارة إلى أن الخطبة في المسجد النبوي عادت إلى أهل السنة سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م في أيام المنصور قلاوون، كما كان لأهل السنة إمام يصلي بهم الصلوات فقط، راجع السخاوي: التحفة اللطيفة ط دار الكتب العلمية ص ٢٨. والسمهودي: السابق جـ٣ ص ٨ وتحدث عن عودة الخطابة والقضاء للسنة في التاريخ السابق.

هذه النار إلى أسقف المسجد بسرعة شديدة، أدت إلى احتراق جميع سقف المسجد الشريف، ووقوع بعض أساطينه «أعمدته» وذوبان رصاصها، واحتراق سقف الحجرة المباركة، وتلف جميع ما احتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوي[1] والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق، وما اشتملت عليه من كتب وكسوة الحجرة، وكان عليها إحدى عشرة ستارة[2]. ووقع هذا الحريق ليلة الجمعة في أول شهر رمضان بعد صلاة التراويح. ولم يسلم من هذا الحريق سوى القبة التي أحدثها الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م لحفظ ذخائر الحرم مثل المصحف الكريم العثماني[3].

وكُتب بذلك إلى الخليفة العباسي الأخير بالعراق المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) فأرسل الآلات والصناع منها لعمارة المسجد النبوي، وابتدئ بالفعل في عمارته أول سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م فتم تسقيف الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلي، وإلى الحائط الشرقي إلى باب جبريل[4] عليه السلام، وتم تسقيف الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف.

لكن الخليفة المستعصم شغل بقتال التتار عن استكمال عمارة المسجد

---

(١) ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى» جـ٤ ص ٢٨٨ أن المنبر المحترق هو المنبر الذي صنعه معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه للمسجد النبوي المبارك، وحقق السمهودي الأمر «وفاء الوفا جـ٢ ص٨-٢٠» فذهب إلى وجود بقايا من المنبر النبوي الشريف إلى احتراق المسجد كانت موجودة ضمن منبر معاوية الذي كان بعضه كالغلاف لمنبر الرسول الكريم ﷺ، وتعهد الخلفاء العباسيون تجديد هذا المنبر، وكان الناس يعرفون أجزاء منبر النبي ﷺ.

(٢) راجع أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٩٤، وابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢٢٦، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٩٨، والعيني: عقد الجمان جـ١ ص ١٢٨، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٠-١٥٢، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص ٢٩١، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٧ ص ٤٥٥، وراجع ابن الشحنة: روض المناظر ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٢، وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ١٠٦.

(٤) سمي هذا الباب بباب جبريل عليه السلام لأنه وقف عنده بعد غزوة الأحزاب، وأخبر الرسول ﷺ بضرورة قتال بني قريظة. وقد يسمى بباب عثمان، لمقابلته لدار عثمان بن عفان رضي الله عنه. السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٢١٤ - ٢١٦.

النبوي[1] فنال شرف ذلك سلاطين المماليك بمصر، حيث أرسلت الآلات والأخشاب منها في أثناء حكم الملك المنصور علي بن الملك المعز أيبك (٦٥٥-٦٥٧هـ/ ١٢٥٧-١٢٥٩م) ووصلت مثلها من اليمن أيضًا[2] ، وبدأت عمارة جديدة للمسجد النبوي لم تتم هي الأخرى لعزل المنصور، ولانشغال الملك المظفر قطز بملاقاة التتار في (عين جالوت) سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وإن كان العمل ظل بالمسجد الشريف في السنة السابقة من باب السلام إلى باب الرحمة، ومن باب جبريل إلى باب النساء المعروف بباب «رَيْطَة ابنة أبي العباس السفاح»[3] .

ولكن العمارة الكاملة الشاملة للمسجد النبوي تحققت مع الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) الذي أرسل سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م الأمير علم الدين بالأموال وبعض لوازم العمارة[4] ، ثم بعث في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م بحرًا الأمير جمال الدين محسن الصالحي ومعه ثلاثة وخمسون صانعًا، إضافة إلى العتالين والنشارين وغيرهم، وأرسل معهم الأخشاب والحديد والرصاص والجمال «ثم صار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات» حتى تمت عمارة المسجد النبوي كلها[5] .

---

(١) راجع السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٢و ١٥٤، والقلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٨٨، وراجع: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢٧٧، وقد بالغ في عمارة المستعصم للحرم النبوي .

(٢) أرسل بها صاحب اليمن المظفر يوسف بن منصور بن رسول، كما أرسل منبرًا إلى المدينة نصب بها حتى سنة ٦٦٦هـ، وبنو رسول خلفوا الأيوبيين في حكم اليمن لأكثر من قرنين من الزمان (٦٢٦-٨٥٨هـ) وراجع القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٨٨، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص١٦ . وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة ط دار الكتب العلمية جـ١ ص٣٣ .

(٣) السمهودي: السابق ص١٥٤و ١٥٥ . وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٢١٧ . طبعة أسعد طرابزني .

(٤) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٤٤٥ .

(٥) راجع ابن الظاهر: الروض الزاهر ص٨٩، والصفدي: الوافي جـ١٠ ص٣٤٠، والمقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٥٠٢، والعيني: عقد الجمان جـ١ ص٣٦٥، والسيوطي: حسن المحاضرة جـ١ ص٩٦ . والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٥، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص ٣٤٠ . وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٢٣، طبعة دار الكتب العلمية. وذهب السخاوي=

وأرسل الظاهر بيبرس منبراً للمسجد النبوي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م ظل يخطب عليه إلى سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ثم أزيل لتأثير الأرضة فيه بمنبر الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) سنة سبع وتسعين وسبعمائة للهجرة[١] .

ولم يزل المسجد النبوي على تلك الحال إلى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فجدد في ولايته الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م) السقف الشرقي والسقف الغربي[٢] أي عما يمين صحن المسجد وشماله في سنتي (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م و ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م). وزاد في ولايته الثالثة والأخيرة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م رواقين في المسقف القبلي «جهة القبلة» متصلين بمؤخره «فاتسع مسقفه بهما وعم نفعهما»[٣] .

وحدث خلل في هذين الرواقين الجديدين في أيام حكم السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧م) فجددهما سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م من مال جزية قبرص التي فتحها سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م، وجدد أيضًا من السقف الشامي مما يلي المنارة السنجارية[٤] ، وأمر بتسمير أبواب الدرابزين التي جعلت على الحجرة الشرقية[٥] .

= إلى حدوث هذه العمارة كلها سنة ٦٥٨هـ، وأظن أن الصحيح ما ذكره باقي المؤرخين كما ورد في المتن، ولأن السنة الماضية كانت سنة التمكين لبيبرس بعد استشهاد المظفر قطز، حيث اندلعت الثورات ضد بيبرس في الشام، وفي مصر على يد الشيعة، وكان بيبرس مشغولاً بهذه الثورات في بداية حكمه. وراجع التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤٤٩ طبعة أسد طرابزني.

(١) راجع القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٨٨، والسيوطي: حسن المحاضرة جـ١ ص٩٥، والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٣ و ص ٢١٢ - ٢١٣، طبعة دار الكتب العلمية، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٦-١٧ . وذكرا أيضًا أن منبر الظاهر برقوق أزيل بمنبر المؤيد شيخ سنة ٨٢٢هـ / ١٤٧٧م ، ثم احترق هذا المنبر في الحريق الثاني سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م، فأمر الأشرف قايتباي بعمل منبر ودكة للمؤذنين من الرخام. راجع السخاوي: السابق نفسه ص ٤٤٨ وجـ٢ ص٢٢٧ .

(٢) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٥ .

(٣) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢١٢ (ط دار الكتب العلمية)، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٥٥ وص ٢٠١) .

(٤) تقع المنارة السنجارية في الجهة الشرقية الشامية من المسجد النبوي. وراجع : السمهودي: السابق جـ٢ ص ٩٩ و ١٥٦ و ٢٠٨ .

(٥) السخاوي: السابق والصفحة نفسها، والسمهودي: السابق والصفحة نفسها.

وفي أيام الملك الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) حدث خلل في سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد، فجدد ذلك في سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م على يد الأمير التاجي[١].

وفي عهد السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٧-١٤٩٥م) حدثت عمارة ضخمة للمسجد النبوي الشريف، بل للمدينة كلها، حتى قيل له: «أما تترك لمن بعدك شيئًا يذكر به؟!!»[٢].

وكانت البداية سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م وفيها بدئ في هدم عقود المسجد التي رحبته من جهة المشرق، وسقف الرواق الذي كان عليها، ونقض بعض أساطين المسجد، وهدم جانب من سور المسجد مما يلي المشرق من جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنجارية، وكان في أصل جدارها انشقاق وكانت تضطرب عند الهدم بحيث خشي سقوطها، فعمرت وأُصلحت هي والجدار والعقود وسقف الرواق والأساطين في السنة السابقة نفسها[٣].

وفي سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م أشرف الشمس شمس الدين بن الزمن (ت٨٩٧هـ/ ١٤٩١م) على عمارة أخرى للحرم الشريف شملت الرواق الشرقي، وجانبًا من رواق جبريل إلى باب النساء (باب ريطة)، وسقف الرواق الأوسط الذي يلي الرواق الذي عمر سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م، وإصلاح المسقف الشامي وغيره، ودهان بعض السقف، وغير ذلك من عمارة للحجرة الشريفة تناولت هدم الجدار الشامي (الشمالي) والشرقي، وجانبًا من الجدار القبلي، وجانبًا من الجدار الغربي، وأعيد بناء ذلك بمشاهدة ووصف دقيق ومشاركة للمؤرخ السمهودي[٤].

---

(١) راجع السخاوي: السابق نفسه جـ١ ص ٢٦ و ٢١٢ و ص٢٤٣ والسمهودي: السابق جـ٢ ص١٥٥ .

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ط أسعد طرابزرني ص ٤١١ وراجع من ص ٤١٠ .

(٣) تحدث السمهودي بالتفصيل عن هذه العمارة في المصدر السابق جـ٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ بينما أجملها السخاوي في المصدر السابق نفسه جـ٣ ص ٤١٠ .

(٤) راجع السمهودي: المصدر السابق جـ٢ ص ١٥٦-١٥٧ و ص١٦٤ - ١٧٤، وفيها تفاصيل شديدة ممتعة للعمارة السابقة ومشاركة السمهودي برأيه فيها ومناقشته للمهندس المشرف على العمارة، ووصفه المستفيض لعمليات الهدم ورفع الأنقاض، وإعادة بناء الحجرة المطهرة ، وحضوره لبعض بناء الحجرة الشريفة، وتشرفه بالعمل فيه.

وقد ترجم السخاوي[1] لأحد العلماء المصريين اللامعين في الهندسة والحساب والميقات وهو أحمد بن عبد الله القاهري الأزهري (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) فذكر السخاوي أنه جاور بالمدينة سنتين لضبط بعض العمائر بها وبغيرها، ولعل هذا العالم كان ممن ساهم في العمارة في السنوات السابقة.

وحدثت عمارة أخرى كبيرة وعظيمة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، ولمدة سنتين، وكانت آخر عمارة تمت في عصر سلاطين المماليك .

وسبب هذه العمارة الضخمة والعظيمة ما حدث للمسجد الشريف سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م من حريق جديد[2] ، سببه هذه المرة سقوط صاعقة في ليلة الثالث عشر من رمضان على منارته الشرقية اليمانية المعروفة بالرئيسية، صعقت رئيس المؤذنين شمس الدين محمد بن الخطيب الذي كان بها، وأحرقت سقف المسجد الشريف وحواصله، وخزائن كتبه، وأبوابه، ومعظم أساطينه، ومنبره، بينما سلمت الحجرة الشريفة والأساطين الملاصقة بجدار الحجرة الشريفة، وحيطانها، وإن كان قد احترق أخشاب قبتها الطاهرة، وكذلك سلمت القبة التي بصحن المسجد للمرة الثانية، وبعض جانبي المسجد الشريف[3] .

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع جـ١ ص ٣٧٦ - ٣٧٧، والتحفة اللطيفة جـ١ ص ١١٩ .

(٢) راجعه لدى السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٧٥-١٨١، وقد وصف هذا الأمر وصفًا دقيقًا. وكانت هذه النيران قد أحرقت ثلاثمائة مجلد للسمهودي كان قد تركها في خلوته بمؤخر المسجد، ومنها أصل كتابه: «وفاء الوفا» وراجع السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٢٠، وابن الحمصي: حوادث الزمان جـ١ ص ٢٦٥ و ٢٧٠ - ٢٧١، وعبد العزيز بن النجمك بلوغ القرى جـ١ ص ١٧١ - ١٧٣، وابن طولون: مفاكهة الخلان ص ٤٥ و ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) ذهب السمهودي (وفا الوفاء جـ٢ ص ١٧٨) إلى أن هذا الأمر عبرة وموعظة لأولي الأبصار، فهذا المحل الشريف تلوث بذنوب المذنبين، وتدنس بآثامهم، فحدث ما حدث للإنذار والزجر، وذكر (ص ١٧٩) أن هذا الخبر لما وصل لرودس أظهر من بها من نصارى الفرح والبِشْر، فأرسل الله عليهم في يومهم زلازل عظيمة هدمت دورهم وسور بلدهم وكنيستهم، ورأى السمهودي ذلك وقرأه في كتب وردت من الإسكندرية «بخط من يُعتمد عليه».

واستشهد في المسجد النبوي بضع عشر نفسًا، منهم العلماء والعامة[1]. بينما استشهد عدد آخر، وصف بالكثرة[2] كان يسكن رباط مراغة[3]، فسقطت المئذنة على هذا الرباط، فمات معظم من كان يسكنه[4].

وقد انفرد ابن طولون[5] بخبر رفض أحد المعماريين المحبوسين بدمشق للإشراف على عمارة المسجد النبوي الشريف، وهو «خير بك حتيت» متعللاً بأن عمارته طويلة، وذلك حين طلب منه هذا العمل قبل بدء موسم الحج. ولم يذكر ابن طولون شيئًا عمن طلب إليه هذا الأمر، واكتفى بعد ذلك ببيان سوء طويته، وقبح مسلكه.

وقد حظي بهذا العمل الجليل الأمير سنقر الجمالي، والشمسي شمس الدين ابن الزمن صاحب العمارة السابقة مباشرة، حيث أصدر السلطان قايتباي أوامره بتنظيف المسجد الشريف، وإرسال الأمير سنقر على رأس مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والنحاتين والحدادين والمرخمين، وغيرهم، ومعهم كثير من الجمال والدواب، كما أرسل مبلغ عشرين ألف دينار، وعددًا من الآلات والمؤن، والمهندسين، وخرج هؤلاء جميعًا بما معهم من مصر في موسم الحج ليؤدوا هذا العمل الكريم، عمارة المسجد النبوي الشريف[6].

---

(١) راجع السمهودي: السابق ص ١٧٥، وراجع ابن طولون: السابق ص ٤٥، وراجع عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ١ ص ١٧٣. وراجع بعض أسماء الشهداء لدى السخاري: التحفة جـ٣ ص ٥١، و ٥٠٨.

(٢) عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ١ ص ١٧٣.

(٣) ينسب هذا الرباط إلى منشئه القاضي محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي (ت٥٩٠هـ) وكان شيخًا كثير المال، وأنشأ هذا الرباط بجانب مسجد رسول الله ﷺ. راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٦٦ - ٦٧.

(٤) راجع: عبد العزيز بن النجم: السابق والصفحة نفسها.

(٥) ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ٤٧.

(٦) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٣٠، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٧٩.

وأتبع قايتباي ذلك بإرسال الشمس شمس الدين بن الزمن في شهر ربيع الأول من السنة نفسها (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) وصحبته أكثر من مائتي جمل، ومائة حمار، وأزيد من ثلاثمائة صانع من أصحاب الصناعة والعمارة السابقة للمسجد الشريف، وغيرهم «من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، واصرفوا لهم شيئًا من الأجرة قبل سفرهم، وقد صارت أحمال المؤن متواصلة، قل أن تنقطع برًا وبحرًا، واستقبلوا أمر العمارة بجد واجتهاد»[١].

وكان المؤرخ العظيم السخاوي شاهدًا على بعض عمارة المسجد النبوي الشريف في هذه المرة، بينما لم ينل هذا الشرف المؤرخ الكبير السمهودي الذي شهد عمارة المسجد النبوي الشريف قبل هذه المرة مباشرة، وكان قد توجه إلى مصر لزيارة والدته وأهله بعد غيبة عنها استمرت ست عشرة سنة، وجاء سفره إلى مصر قبل الشروع في هذه العمارة، فلم يحضر منها شيئًا كما ذكر هو بنفسه[٢].

وقد أثنى السخاوي ثناءً عظيمًا على كفاءة وأدب وهمة الشمسي بن الزمن، المشرف على العمارة للمسجد الشريف، ورأى السخاوي بنفسه هذه الصفات الجليلة، وتلك السجايا الكريمة[٣]. وكما كان للسمهودي مناقشات ومحاورات مع المهندسين في عمارة المسجد النبوي الشريف سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م، فإن السخاوي كان له رأيه واستفساراته في هذه العمارة الجديدة، مما يبين عاطفة هذين العلمين الجياشة، وحرصهما الشديد على حسن العمل بمسجد النبي ﷺ، وعظيم اهتمامهما بالمسجد الشريف، وعميق حبهما له، وحسن ولائهما لهذا الحرم الطاهر.

وبدئ في عمارة المئذنة الرئيسية بعد هدمها إلى أساسها، فتمت عمارتها مع

---

(١) السمهودي: السابق ص ١٧٩.

(٢) السمهودي: السابق ص ١٨٠.

(٣) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٩٣٠.

ميلان يسير، فسأل المؤرخ السخاوي المهندس عن هذا الميل اليسير، فأخبره أنه غير مؤثر[1] .

ثم بنوا سور المسجد الشريف من ركن المنارة التي بباب السلام إلى آخر جدار القبلة، وما يليه من المشرق إلى باب جبريل عليه السلام، وما يلي المنارة من المغرب أيضًا إلى باب الرحمة، وزادوا في عرض السور زيادة يسيرة، ووسعوا المحراب العثماني وجعلوا عليه قبة على رؤوس الأساطين، وسقفوا مقدم المسجد، وجعلوا على ما يحاذي الحجرة الشريفة وما حولها قبة عظيمة على دعائم بأرض المسجد، بدلاً من القبة الزرقاء التي كانت قبل الحريق، وأقاموا قبتين أمام باب السلام من داخله، وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى الشريف، وأقاموا محرابًا مزخرفًا بالرخام، وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها، وترخيم الجدار القبلي، وعملوا المنبر ودكة المؤذنين من رخام، واتخذوا فيما أعادوه من الجدار الشرقي خزائن للكتب وطاقات متسعة مستديرة تكثيرًا للضوء، وأنشأوا مدرسة ورباطًا للسلطان الأشرف قايتباي، وتم إرسال المصاحف والكتب من مصر للمسجد النبوي[2] .

وكانت هذه العمارة قد كملت كلها في أواخر شهر رمضان سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، إلا بعض البياض اليسير، والترخيم القليل[3] . وحدث الدهان لسقف المسجد الشريف في السنة التالية مباشرة، وكمل بذلك الحرم الشريف المدني كله

---

(١) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٣١، وراجع السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٧٩ .

(٢) راجع تفاصيل هذه العمارة لدى السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٧٩ - ١٨٣، وقد عاد السمهودي من مصر إلى المدينة المنورة، فرأى هذه العمارة كلها ووصفها وصفًا دقيقًا. وراجع بعضها لدى السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص٩٤١، والتحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤١٠ . وعبد العزيز ابن النجم: السابق ص ٢٠٤ و ص٢١٥، وابن طولون: السابق ص ٥٢ و ٥٤ ، وراجع ابن الحمصي: حوادث الزمان جـ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠، والغزي: الكواكب السائرة جـ١ ص ٣٠٠، وابن العماد: شذرات الذهب جـ١٠ ص ١٣، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٣ ص ١٩٦ وص ٣٢٩ .

(٣) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٩٤١، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٨٣ . وابن طولون: مفاكهة الخلان ص ٥٢ .

«ولم يبق منه شيء أصلاً، وكذا لم يبق من المدرسة السلطانية غير الترخيم وبعض تتمات من أعلاها، وسكن بعض خلاويها»[1] .

وقد أخبر بعض المباشرين لهذه العمارة المؤرخ السمهودي أنها تكلفت أكثر من مائة وعشرين ألف دينار[2] .

ومع هذا كله شوهد في القبة العظمى التي عملت على الحجرة الشريفة نحو عشرة شقوق نافذة إن أهلمت ضرت، وسبب ذلك تقصير المهندس، فطلب السلطان قايتباي إلى (البدري أبي البقاء) النظر في أمر القبة[3] التي كلما رممت تشققت، وذلك لاستعمال مؤن غير صالحة في عمارتها، كذلك خيف من هذه المنارة الرئيسية المائلة، وكان سبب ميلها عدم حفر أساسها حفراً عميقًا، فعين السلطان قايتباي الشجاع شاهين الجمالي للنظر في هذا الأمر سنة ٨٩١هـ، فاستشار أهل الخبرة، فأشاروا بهدم أعالى القبة، وهدم المنارة، وحفر أساسها من جديد حتى بلغ الماء، وأُحكم بناؤها (بحيث لم ير قبلها بالمدينة الشريفة مثلها).

أما القبة فشرع في هدمها بحرص حتى لا يقع شيء منها في الحجرة الشريفة، وشرع في بنائها بحيث لم يتخذ المسجد طريقًا للعمال عند بنائها، بل كان العمال يمشون على «سقالات» إلى سطح المسجد من الناحية الشرقية، حتى إن الناظر لا يشعر بوجود عمارة بالمسجد، وجاءت القبة حسنة متقنة (حتى إنه استصحب في هذه العمارة الجبس من مصر المحروسة، واستعمله في البناء، وحرص على إتقان الآجر، وزاد العمال فيه على عادتهم»[4] .

وهكذا تمت هذه العمارة الضخمة للمسجد النبوي الشريف، وآثر الله بها

---

(١) وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٤٨، وراجع: السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٨٣ .

(٢) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٨٣ .

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٩٤٨ .

(٤) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٨٤ . وراجع: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٣٨ - ٤٣٩ . للوقوف على هذه العمارة، وللوقوف على عمارة أخرى يسيرة سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م .

الأشرف قايتباي الذي استحق ثناء السخاوي[1]، والسمهودي[2] المعاصرين للأحداث، والشاهدين عليها، والمتابعين لها.

وتعد هذه العمارة الواسعة الضخمة للمسجد النبوي عمارة متينة في غاية الحُسْن والإحكام، إذ لم تحدث عمارة أخرى للمسجد الشريف بعد ذلك في عهد سلاطين المماليك، كما أن عمارة المماليك استمرت حتى عهد السلطان العثماني عبدالمجيد بن محمود الثاني (١٢٥٥-١٢٧٧هـ) حيث حدثت عمارة واسعة للمسجد بداية من سنة ١٢٦٥هـ، ولمدة اثنتي عشرة سنة، ومعنى هذا أن عمارة المسجد الشريف زمن الأشرف قايتباي استمرت حوالي أربع وسبعين وثلاثمائة سنة على حالها دون أي ترميم لها، مما يثبت قوتها ومتانتها وإتقانها.

٢- الإضافات والزيادات بالمسجد النبوي:

حدثت بعض الإضافات والزيادات للمسجد النبوي في عصر سلاطين المماليك منها: المقصورة التي حول الحجرة الشريفة، فهي من مستحدثات الظاهر بيبرس الذي حج سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، ونزل المدينة المشرفة فرأى الناس- كما يذكر السيوطي - يلتصقون بالقبر النبوي الشريف، فأراد أن يجعل على الحجرة الشريفة درابزينًا من خشب، فقاس ما حول الحجرة الشريفة بيده، وقدره بحبال وحملها معه إلى مصر، وأمر بصنع درابزين بقدر هذه الحبال، وأرسله في سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م فأدير عليها، وعمل له ثلاثة أبواب: قبلي وشرقي وغربي، ونصب بين الأساطين التي تلي الحجرة الشريفة إلا من ناحية الشام، فإنه زيد فيه إلى متهجد النبي ﷺ، وعرف هذا الدرابزين بالمقصورة[3].

وكان ارتفاع هذه المقصورة أو الدرابزين أول الأمر نحو القامتين، فلما كان

---

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤١١.

(٢) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥، وراجع ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) راجع الصفدي: الوافي بالوفيات جـ١٠ ص ٣٤٠، والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٢٣، والسمهودي جـ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠، والسيوطي: حسن المحاضرة جـ١ ص ٩٦. وراجع السمهودي: السابق نفسه ص ١٦١ - ١٦٣ للوقوف على آراء العلماء المتصلة بهذه المقصورة.

في سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م زاد عليه الملك العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٦م) شُباكًا دائرًا عليه، ورفعه حتى وصله لسقف المسجد[١].

وزيد لهذه المقصورة باب رابع عند زيادة الرواقين سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م وهو من جهة الشمال في رحبة المسجد[٢].

كما كانت هذه المقصورة تجدد عند حدوث التجديدات السابقة للحرم النبوي وصارت هذه المقصورة تعرف بالحجرة الشريفة، وأبوابها بأبواب الحجرة، وما يعلق بسقفها بقناديل الحجرة[٣]. وحدث في أيام حكم الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧م) سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م تسمير لأبواب الدرابزين، فصار الناس يزورون من وراء الدرابزين من غير دخول أحد إلى الحجرة الشريفة، لزيادة حُرمة الحجرة الكريمة، ولتنزيه القبر الشريف عن الملامسة بالأيدي[٤].

وهكذا حافظ هذا الدرابزين على حُرْمة الحجرة الشريفة، وعلى عقيدة الأمة الإسلامية التي فسدت عند بعض الجهلة ممن كانوا يلصقون ظهورهم بجدار القبر الشريف طلبًا للبركة، وطمعًا في الخير[٥]، وإن كان قد أخذ على الظاهر إنشاؤه لهذا الدرابزين؛ لأنه استقطع جزءًا من الروضة الشريفة مما يلي بيت النبي ﷺ مع ما ثبت من فضلها وفضل الصلاة فيها[٦].

ومن الإضافات في عصر المماليك أيضًا: القبة التي بُنيت على الحجرة

---

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤٢٧، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٦٠.

(٢) السمهودي: السابق جـ٢ ص١٦٠.

(٣) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٦٠ و ص ١٦١.

(٤) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٦٣، وراجع اهتمامًا آخر بالمقصورة، السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٣٨، وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ١٤٣.

(٥) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٦٣، وراجع السيوطي: حسن المحاضرة جـ١ ص ٩٦.

(٦) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص١٦١ - ١٦٣. وراجع: السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٧٩.

الشريفة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٣م) ولم يكن قبل ذلك عليها قبة ولا بناء مرتفع، وإنما كان حول الحجرة الشريفة فوق سطح المسجد حظير (سور قصير) مبني بالآجر، ارتفاعه مقدار نصف قامة، بحيث يتميز سطحها عن سطح المسجد، فعملت هذه القبة من أخشاب، وعلى الألواح الخشبية ألواح من الرصاص، وفيها طاقة إذا أبصر الشخص منها رأى سقف المسجد[١].

وقد جددت هذه القبة في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٥٢-٧٥٥هـ/ ١٣٥١-١٣٥٤م) حين اختلت الألواح الرصاص عن وضعها، فَخَشُوا من كثرة الأمطار فجددت[٢]. ثم جددت مرة أخرى سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م في سَلطَنة السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٢-١٣٧٦م) وأحكم بناؤها «وجددت في أيامه سنة سبع وستين وسبعمائة للمسجد شرفات»[٣].

ولما ظهر في بعض أخشابها خلل سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م عضدت على يد متولي العمارة الشمس بن الزمن بأخشاب سمرت معها، وقلع ما حولها من ألواح الرصاص التي أعلى السطح بينها وبين الدرابزين، ورفعت الأخشاب التي تحت ذلك، ووضع مكانها أخشاب ورصاص جديدان، وجدد الدرابزين المحيط بها أيضًا[٤].

وأخيراً جددت هذه القبة سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م أثناء عمارة المسجد الشريف في تلك الفترة، فأصبحت في غاية الحُسْن والإحكام[٥]. وقد بنى مكانها قبة

---

(١) راجع الصفدي: الوافي جـ٧ ص ٧٦، والمقريزي: المقفى جـ١ ص ٤٨٨-٤٨٩، والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ١١٥ وجـ٣ ص ٤١٨، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٨٧، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٤٣، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٥٨.

(٤) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٥٩.

مشرفة جديدة هي القبة الخضراء التي بُنيت في عهد السلطان العثماني محمود الثاني سنة ١٢٣٣هـ.

ومن إضافات سلاطين المماليك أيضًا للمسجد النبوي الشريف: بناء منارة باب السلام سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م في أثناء حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١] (٦٩٨-٧٠٨هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م) الذي أمر بإنشائها لتكون المنارة الرابعة للمسجد الشريف، فلقد كان المسجد النبوي حتى سلطنة الناصر محمد ثلاث منارات فقط[٢]، ثم أنشئت في السنة السابقة نفسها المنارة الرابعة للمسجد عند باب السلام، وقد حفر أساسها عميقًا حتى وصل إلى الماء، وبناها: الشيخ إبراهيم البناء، والشيخ علي الفراش الحجار (ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) وكانا مشهورين بالإتقان في العمل، وإحكام الصنعة، حتى إن السخاوي قال عن الأخير منهما: «لم أدرك في الفراشين مثله»[٣].

وقد ذكر المقريزي[٤] أن رئيس المؤذنين محمد بن نصر الله بن يوسف (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) بالمسجد النبوي توفي عند فراغه من أذان الصبح بـ«المئذنة الجديدة» من الحرم النبوي من غير مرض ولا عرض.

ومن إضافات سلاطين المماليك أيضًا للمسجد النبوي الشريف: الرواقان

---

(١) تولى الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات: الأولى من سنة (٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية من سنة (٦٩٥-٧٠٨هـ/ ١٢٩٨-١٣٠٨م)، والثالثة والأخيرة كانت سنة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م)، وواضح أن هذه العمارة للمنارة تمت في الولاية الثانية.

(٢) هي المنارة الشرقية اليمانية المعروفة بالرئيسية لاختصاص رئيس المؤذنين بها، والمنارة الشرقية الشامية (الشمالية) المعروفة بالسنجارية، والمنارة الغربية الشامية. وعن هذه المنارات وطولها وما حدث لها من تغيير. راجع السمهودي السابق جـ٢ ص ٩٩.

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٢٧٧ وراجع من ص ٢٦٧ و ص٤٦٩، وراجع جـ١ ص ٢٧، وراجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٠٠ - ١٠١.

(٤) المقريزي: المقفى جـ٧ ص ٣٣٥. وتجدر الإشارة هنا إلى وجود مئذنة خامسة بنيت للمدرسة التي بناها الأشرف قايتباي ملاصقة للحرم النبوي الشريف سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م. راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٧.

اللذان أضافهما السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م إلى المسجد النبوي في المسقف القبلي، فاتصلا بمؤخرة المسجد «فاتسع مسقفه بهما وعم نفعهما»[١] . وقد سبق الحديث عن تجديد هذين الرواقين سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م في أثناء حكم الأشرف برسباي[٢] .

وبعد.. فما تقدم هو أبرز الإضافات والزيادات التي تمت على أيدي سلاطين المماليك، ويتبين لنا أنها قليلة على أعمالهم السابقة التي تناولت تجديدات الحرم النبوي الشريف، ولكنها إضافات مهمة مطلوبة، تساهم مع العمارة السابقة للحرم الشريف في عمران المسجد، والاهتمام به، وصولاً إلى أعلى درجات الكمال، والجودة، والجمال.

٣- كسوة الحجرة الشريفة:

تعد كسوة الحجرة الشريفة من الأعمال المهمة التي تظهر تعظيم المسلمين للنبي ﷺ، وتقديرهم لقدره ﷺ .

وبدئ في كسوة الحجرة الشريفة منذ العباسيين الأوائل[٣] ، حيث ورد القيام بذلك في خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٧-٨٠٨م) ولم يزل الخلفاء العباسيون يتولون القيام بكسوة الحجرة الشريفة، والمنبر إلى أن سقطت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على أيدي التتار «فتولى ملوك الديار المصرية ذلك كما تولوا كسوة الكعبة»[٤] .

وأول من كساها من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس الذي اهتم سنة

---

(١) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٥٥، وراجع ص ١٦٠، وراجع: السخاوي السابق جـ١ ص ٢١٢، وجـ٣ ص ٧١٦ .

(٢) راجع المصدرين السابقين والصفحات نفسها، وعن أروقة الحرم النبوي راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠١ .

(٣) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٣٠٤، وراجع المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٧٣٧ .

٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م بكسوة الضريح النبوي الشريف، وأرسل تلك الكسوة في شهر رمضان مع الطواشي جمال الدين الصالحي، وأرسل معه كذلك البخور والزيت والطيب[١] . وكانت هذه الكسوة مصنوعة من الديباج[٢] .

واستمر الملوك والسلاطين يكسون الحجرة الشريفة إلى أن قام السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر قلاوون (٧٤٣-٧٤٦هـ/ ١٣٤٢-١٣٤٥م) في سنة ٧٤٣هـ بشراء قرية من بيت مال المسلمين بالقليوبية من ضواحي القاهرة هي قرية «بَيْسُوس»[٣]، ووقف ثلثيها على كسوة الكعبة، والثلث الأخير لكسوة الحجرة الشريفة والمنبر[٤] .

وكانت كسوة الحجرة الشريفة تتم كل سنة، حيث يبعث بها من مصر[٥]، مع كسوة الكعبة المطهرة، ونصت المصادر على كسوتين أرسل بهما بيبرس[٦] .

ويؤكد ذلك ما ذكره السخاوي من استمرار الوقف على كسوة الحجرة حتى سلطنة المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م)، فلما ضعف الوقف، اقتصر على إرسال كسوة الحجرة في كل خمس سنين مرة، ثم أصبحت تُكْسى في كل عشر سنين مرة، ولكن كلما ولي ملك بمصر اعتنى بإرسالها[٧] .

وذكر القلقشندي أن كسوة الحجرة الشريفة لا تجدد كل سنة؛ لأنها مصونة من الشمس بخلاف كسوة الكعبة المعرضة للشمس، فكلما بليت كسوة الحجرة

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص٥١٢، وراجع العيني: عقد الجمان جـ١ ص ٣٧٦ .

(٢) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٣٠٠ .

(٣) تعرف اليوم بقرية بسوس، وللباحث قرابة بهذه القرية.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٤، وراجع ص ١٨٤، وجيز الكلام جـ١ ص ١٠، وراجع السمهودي : السابق جـ٢ ص ١٤٠ .

(٥) راجع المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٧٣٧ .

(٦) راجع المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٥٨٠، وقارن ذلك بـ ص ٥١٢ الجزء نفسه .

(٧) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٠، وص ٣٤، و١٨٤، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٤٠، وراجع القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٣٠٣ .

الشريفة جددت، وأشار إلى أنها في أيامه مكسوة بالحرير الأسود، وعليه طراز مرقوم بحرير أبيض، وهي من كسوة الظاهر برقوق[١] .

وفيما يتصل أيضًا بالحجرة الشريفة فإن السلطان الصالح إسماعيل قام بعمل آخر يتصل بها، وهو وقف ثلثي إحدى قرى القليوبية أيضًا، وهي قرية «سَنْدَبِيس» على ستة عشر خادمًا لخدمة الضريح النبوي الشريف، فبلغ عدة خدام الضريح الشريف أربعين خادمًا[٢]، وذلك في سنة وقف ثلث «بيسوس» على كسوة الحجرة الشريفة، ثم وقف عليهما الناصر محمد بن قلاوون وقفًا آخر[٣] .

٤- إضاءة المسجد النبوي:

حرص سلاطين المماليك على الاهتمام بإضاءة وإنارة المسجد النبوي الشريف، ووقفوا على ذلك الأوقاف بمصر بصفة خاصة[٤] . وكانت القناديل تجهز نهارًا وتسرج مع المغرب، وتُطفأ مع الصباح[٥] . وقد بلغ عدد القناديل في أيام المؤرخ السمهودي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) مائتي قنديل وستة وخمسين قنديلاً، تسرج كل ليلة، ونحو المائة قنديل تسرج في بعض الأوقات والمناسبات الدينية، إضافة إلى بعض الفوانيس التي يُطاف بها بعد صلاة العشاء لإخراج الناس من المسجد الشريف عند غلق أبوابه[٦] .

وكان سلاطين المماليك حريصين على إهداء قناديل الذهب والفضة المنقوشة وغير المنقوشة إلى المسجد النبوي الشريف بصفة عامة، وإلى ما حول الحجرة الشريفة بصفة

---

(١) القلقشندي: السابق جـ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٢ قسم٣ ص ٦٣٣ .

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٥، وراجع هناك مهام ووظائف وأعمال هؤلاء الخدام ص ٣٤-٣٦، وتجب الإشارة هنا إلى وقوع خلط بين الوقف على الحجرة الشريفة، والوقف على خدمها، فظن بعض المؤرخين أنه واحد. والصحيح كما ذكر المقريزي أن وقف «سندبيس» كان على خدم الحجرة، ويؤكد صحة ذلك اختلاف القرية الموقوفة على الحجرة عن الموقوفة على الخدم. راجع هذا الخلط لدى السخاوي: التحفة جـ١ ص ١٨٤، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٤٠ .

(٤) السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠١ .

(٥) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٤ .

(٦) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠٩ .

خاصة[١] ، واستمر هذا الأمر إلى عصر المؤرخ السمهودي الذي أشار إلى إهداء الملوك وغيرهم إلى الحجرة الشريفة بصفة خاصة قناديل الذهب والفضة[٢]. وذكر أن غالب ما يهدى للحرم سنويًا من قناديل يزيد على العشرين قنديلاً[٣] .

ولم يقف أمر العناية بإنارة المسجد النبوي عند السلاطين والأمراء فحسب، بل ساهم أفراد الأمة الإسلامية في هذا الأمر بالنذر. ولدينا خبر عن وفاء أم محمد بن محمد بن عبد الرحمن القاهري (ولد ٨٢١هـ/١٤١٨م) بنذرها للمسجد النبوي، وهو قنديل من فضة إن رزقها الله بذكَر[٤] .

وهذا يعطينا صورة عن جانب من جوانب الاهتمام بإضاءة المسجد النبوي المبارك، حيث نذر عدد من المسلمين إضاءة المسجد الشريف بالقناديل التي كثرت كثرة ظاهرة، مما أدى إلى رفع بعضها ووضعه بالحاصل[٥]، الذي في وسط المسجد[٦] .

وقد زادت قناديل الحجرة الشريفة سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م عن ثمانية عشر قنديلاً من الذهب، إضافة إلي قناديل الفضة والنحاس [٧] .

---

(١) تعرضت هذه القناديل للسرقة من قبل بعض الأشراف الشيعة الاثني عشرية في كثير من المرات لقيمة هذه القناديل، وراجع على سبيل المثال: المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٣ ص ٨١٦ وجـ٤ قسم١ ص ٧٥ و ص ١٢٩ - ١٣٠ وجـ٤ قسم ٢ ص٧٢٧ وراجع المقفى جـ٢ ص ١٣ - ١٤ . وابن حجر: إنباء الغمر ط بيروت جـ٦ ص ١٠٤ و ١٧٩ و ١٨٠ وجـ٨ ص ١٠٧ وعبدالعزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ٢ ص ٩١٩ و٩٣٨، والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢١٢ و ص٢٤٧ و ٢٦٧ و ٣٣١ و ص٣٥٠ وجـ٣ ص١٧٦ و ٤٥١، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٤١ - ١٤٥ ، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٩ ص ٢٧٢ .

(٢) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٤١ وراجع ص ١٤٤ .

(٤،٣) زين الدين الحلبي: القبس الحاوي جـ١ ص ٣٢١ .

(٥) عن حواصل وخزائن المسجد النبوي راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٦) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٤١ .

(٧) راجع عن ذلك بالتفصيل السمهودي: السابق جـ٢ ص١٤٣ - ١٤٥ . وراجع ص ١٤٥ - ١٥٠ للوقوف على جواز تعليق قنديل الذهب والفضة بالمسجد النبوي المبارك، إكرامًا وتعظيمًا للمسجد النبوي الشريف، وإن كان السمهودي يرى تجنب ذلك.

وكان زيت القناديل يحمل من مصر والشام، وبلغ في أيام المؤرخ السمهودي أكثر من مائة قنطار من الزيت[١]. وقد أثنى المؤرخ ابن شداد[٢] على اهتمام الظاهر بيبرس بإرسال الزيت والشمع إلى الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

وهكذا اعْتُنِيَ بإنارة وإضاءة الحرم النبوي الشريف عناية فائقة، وبُذِلَتْ الأموال الطائلة لتحقيق هذا الهدف الذي شارك فيه الرعية أيضًا، إلى جانب السلاطين والأمراء، وكبار رجال الدولة المملوكية.

٥- إنشاء المواضئ عند المسجد النبوي الشريف:

أشارت مصادرنا التاريخية إلى وجود بعض المواضئ عند أبواب المسجد النبوي الشريف، ويأتي على رأسها ميضأة الملك المنصور قلاوون عند باب السلام، وهي ميضأة وصفت بالهائلة[٣]، أمر الملك المنصور قلاوون ببنائها للوضوء عند باب السلام سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، فجاءت في غاية الاتساع والانتفاع[٤]، وتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر، وأقام هذه الدار للوضوء متسعة الفناء (تستدير بيها البيوت، وأجرى إليها الماء)[٥]. وهناك مواضئ أخرى كانت موجودة عند حائط المسجد الشامي[٦]، وفي رباط الأشرف قايتباي وهي الميضأة الثالثة التي كانت تستخدم في الوضوء في عهد المماليك[٧]. وبذلك تكون هناك ميضأتان أقيمتا للحرم النبوي النبوي الشريف

(١) السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠١.

(٢) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٣٠٠.

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤١٨.

(٤) السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٧. وراجع السمهودي: جـ٢ ص ٢٢٥ و ٢٣٧ وجـ٢ ص ٢٤٧.

(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص ١٣٩. ويذكر هنا أن الشمس الجبرتي (ت٧٦٥هـ) أحد رؤساء المدينة كان مشرفًا على مواضئ المنصور قلاوون. السخاوي: السابق جـ٣ ص ٦٤٨.

(٦) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٧ والسمهودي وفاء الوفا جـ٢ ص ٢٠٧. وهذه الميضأة أقامتها أم الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وحفرت لها بئرًا، وفتحت لها بابًا إلى المسجد في الحائط الذي يلي الشام. السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠٦.

(٧) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٧، وأشار إلى ميضأة رابعة أخرى كانت معطلة في عصره وتقع شرقي المسجد النبوي الشريف.

في عهد المماليك، وقامتا بدور مهم في الوضوء للصلاة في عهد سلاطين المماليك.

تعقيب:

تبين لنا - فيما سبق - مدى عناية سلاطين المماليك وأمرائهم بالمسجد النبوي الشريف: تجديداً وإعماراً، واهتماماً بإضاءته، ورعاية للحجرة الشريفة المباركة، وغير ذلك من تعمير وإصلاح وإضافة تُكَلِّف الكثير من الأموال. ولدينا أخبار أخرى دالة على هذا الاهتمام منها فرش الروضة الشريفة بالسجاجيد[1]، ونصب الستائر على الأبواب الأربعة للحجرة الشريفة، وكذا أبواب المسجد[2]، ولاشك في أن لسلاطين المماليك دوراً في الأمور السابقة، ولكن المصادر لم تنص على ذلك، وإنما وردت هذه الأخبار لدى بعض المؤرخين المعاصرين لحكم المماليك، مما يدل على اهتمام المماليك بهذه الأمور.

ولم يقف اهتمام سلاطين المماليك عند المسجد النبوي المبارك فحسب، وإنما امتد هذا الاهتمام لمساجد المدينة الشريفة كلها، بل لكل مظاهر الحياة المختلفة بالمدينة النبوية كلها، وهو ما سوف يتبين من خلال هذا البحث.

ثانياً: عمران باقي مساجد المدينة الشريفة:

حظيت مساجد باقي المدينة النبوية الشريفة الأخرى بمزيد من عناية واهتمام سلاطين المماليك، فجددت، ورممت، وأضيف إلى بعضها بعض الإضافات.

وكان مسجد قباء قد جدد لأول مرة في عصر المماليك سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م، وقد كتب تاريخ هذا التجديد على محراب الدكة المرتفعة عن أرض المسجد بالرواق الذي يلي الرحبة[3].

وإذا كانت المصادر لم تشر إلى صاحب هذا التجديد، إلا أنه يمكن أن يكون

---

(١) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٧٠٥، وراجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠.

(٢) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٤.

(٣) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٢٣ و ٢٤.

للظاهر بيبرس دور في هذه العمارة لمسجد قباء، وأن تكون العمارة بعد عمارة المسجد النبوي المبارك قبيل هذه العمارة مباشرة، وربما رأى الظاهر بيبرس الذي حج وزار المدينة النبوية المباركة سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م ما استدعى هذا التجديد لمسجد قباء.

وقد حدث تجديد آخر للمسجد في أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م وبالمسجد- كما يذكر السمهودي - منقوش يقضي بأن هذا التجديد بأمر الناصر محمد بن قلاوون[١].

وقد تم تجديد سقف المسجد في أيام الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧م) سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م على يد أحد مشايخ الخدام وهو ابن قاسم المحلي[٢].

وعندما سقطت منارة المسجد سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م جددها الشمي بن الزمن سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م في أثناء عمارته للمسجد النبوي، وهدمت المئذنة إلى الأساس كما هدمت الأسطوانة التي كانت لاصقة بها، كما هدم متولي العمارة ما يلي المنارة من سور المسجد، وأعاد بناء ذلك، وجدد بعض سقفه، وبنى السبيل والبِرْكة المقابلين للمسجد[٣].

وقد حدث تجديد يسير[٤] آخر لسطح المسجد في سلطنة الأشرف قايتباي أيضًا سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م.

وللسخاوي[٥] مقولة معبرة عن عمارة مسجد قباء في أيام قايتباي هي: «وقد جددت منارته وغيرها، ونُوِّر، وتزايدت بهجته في أيام الأشرف قايتباي».

---

(١) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٢٤.

(٢) السمهودي: السابق جـ ٣ ص ٢٤.

(٣) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٢٤، ٢٥، وراجع جـ٢ ص ١٦٤ و ١٧٤. وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٣٩.

(٤) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٣٩.

(٥) السخاوي: السابق جـ١ ص ٤١.

كما أن المؤرخ السمهودي المعاصر للأحداث - كالسخاوي - تحدث عن العمارة السابقة وذكر أنه قد تم إحكام مصرف المياه التي كانت تجتمع حول المسجد عند كثرة الأمطار، وأنفق قايتباي على هذه العمارة وهذا العمل كله مالاً جزيلاً، وأمكان الاستفادة من ماء المطر عند مسجد قباء «وذلك كله في الصحائف الشريفة السلطانية الأشرفية، أعز الله أنصارها، وأعلى في سلوك العدل منارها، على يد المتولي العمارة الجناب الشمسي»[1].

أما عن اهتمام سلاطين المماليك بمسجد القبلتين، فإنهم جددوا سقفه في أيام الأشرف قايتباي سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م على يد شيخ الخدامين الأمير شجاع الدين الجمالي[2].

وكذلك اهتموا بمساجد الفتح[3] فتم تجديد المسجد المنسوب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م حيث جدده الأمير زين الدين ضغيم المنصوري في ولاية قايتباي، بعد أن تهدم بناؤه[4]. كما سقف أمير المدينة زين الدين ضغيم مسجد الفتح أيضًا، واهتم بباقي مساجد الفتح الأخرى[5]. وجدد هذا الأمير مسجدًا آخر منسوبًا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م يقال: إنه صلى به العيد وقت حصار سيدنا عثمان رضي الله عنه[6].

وحظي مسجد بني قريظة[7] بعناية سلاطين المماليك، فجددوه مرتين: المرة

---

(١) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٧٤.

(٢) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٤٧، وراجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤١ و ص ٤٣٩ وجعل تجديد السقف سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، وراجع من ص ٤٣٨ - ٤٤٠ للوقوف على ترجمة الأمير شاهين شجاع الدين الجمالي.

(٣) عنها راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٣٩ - ٤٤ ومسجد الفتح هو الذي دعا فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق على الأحزاب، وصلى فيه فاستجيب له وحوله مساجد تعرف بذلك وبغيره، كأبي بكر، وعلي، وسلمان. راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤١.

(٤) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٠، والسمهودي: السابق جـ٣ ص ٤٤.

(٥) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص٤٤.

(٦) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٠. وراجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٦ و ص ٧.

(٧) عنه راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٣٤ - ٣٥.

الأولى ٧١٠هـ/ ١٣٠١م إذ جُدِدَ، وبُنِيَ عليه حظير «سور قصير» مقدار نصف قامة[١] ، والمرة الثانية والأخيرة في زمن المماليك كانت سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م على يد الأمير شاهين الجمالي[٢] .

كما تم تجديد مسجد الجمعة الذي صلى به ﷺ أول جمعة بالمدينة، وهو في بني سالم، على يمين السالك إلى مسجد قباء، وجدده الأمير شاهين الجمالي أيضًا[٣] . وجدد الأمير شاهين الجمالي أيضًا مسجد أبيّ بن كعب رضي الله عنه في أول البقيع، ويبدو أنه قد زِيدَ فيه زيادة ملحوظة، مما جعل السخاوي يقول: «بل كاد أن يكون أنشأه الأمير شاهين الجمالي»[٤] .

وامتدت عناية سلاطين المماليك لمساجد المدينة النبوية الشريفة إلى مسجد المصلى الذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ العيد[٥] فتمت عمارته في أيام السلطان الملك الناصر حسن بن السلطان محمد بن قلاوون (٧٤٧-٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥٤م)[٦] ورأى المؤرخ السمهودي كتابة على بابه تشير إلى هذه العمارة[٧] ، وحدثت عمارة أخرى لهذا المسجد سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م في ولاية السلطان الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م) وزاد بعض الزيادات[٨] .

(١) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٣٥ .

(٢) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص٤١، ٤٣٩، والسمهودي: السابق جـ٣ ص ٣٥ .

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص٣٩ . ويعرف هذا المسجد أيضًا بمسجد الوادي لوقوعه ببطن الوادي. ولم يذكر السخاوي تاريخ تجديده، ولعله جدد في نفس فترة تجديد مسجد بني قريظة، ومسجد القبلتين، أي سنة ٨٩٣هـ .

(٤) السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٨، وعن هذا المسجد راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٥٤-٥٥، وما يقال عن مسجد الجمعة يقال أيضًا عن هذا المسجد .

(٥) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٣ - ١٠ للوقوف على مصلى العيد الذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ العيد، وعلى الأماكن الأخرى التي صلى فيها رسول الله ﷺ العيد قبل هذا المصلى. وراجع حتى ص ١٥ .

(٦) وللناصر حسن بن محمد بن قلاوون ولاية أخرى أخيرة من (٧٥٥هـ-٧٦٢هـ/ ١٣٥٤-١٣٦٠م).

(٧) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٧ .

(٨) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٨ .

هذا وقد حدث ترميم لمسجد الإجابة[١]، ومسجد بني ظَفَر[٢] ، وتم بناء مسجد السقيا[٣]، ومسجد الراية الذي بناه جانبك النيروزي سنة خمس أو ست وأربعين وثمانمائة في أثناء حكم الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م)[٤] .

ولم يقف اهتمام سلاطين المماليك عند تجديد[٥] وترميم وعمارة مساجد المدينة المنورة المباركة، وإنما بني في عهدهم مسجدان بعد الخمسين وثمانمائة من الهجرة بطريق مسجد قباء، أحدثهما الأمير محمد بن أحمد السلاوي[٦] ، بل بنى بعض العلماء مساجد أخرى بالمدينة في عصر المماليك أيضًا[٧] .

كما تم تجديد المساجد الواقعة بين مكة والمدينة المنورة كمسجد ذي الحليفة[٨] وغيره[٩] .

وهكذا كانت عناية واهتمام سلاطين المماليك بمساجد المدينة المنورة التي شهدت عمارة كبيرة في عهدهم، مما يبين حرصهم الكامل على عمران المدينة النبوية بالمساجد المشيدة تشييدًا يليق بها، ويناسب مكانتها، ويساهم في أداء وظيفتها المنوطة بها، ولاشك في أن هذه العمارة احتاجت نفقات كبيرة، وفرها هؤلاء السلاطين من أجل الوفاء بكل متطلبات هذه العمارة.

---

(١) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٣٨، وراجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٨ .

(٢) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٣٧ وعنه راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٩، ويعرف هذا المسجد أيضًا بمسجد البغلة لوجود أثر حافر بغلة النبي ﷺ عنده . راجع المصدرين السابقين والصفحات نفسها .

(٣) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٤٩ وعنه راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٠ .

(٤) السمهودي: السابق جـ٣ ص٤٩، وعنه راجع السخاوي: جـ١ ص ٣٩ . وقد يسمى هذا المسجد باسم مسجد «ذباب» نسبة إلى الجبل الذي عليه مسجد الراية وعن هذا الجبل راجع السمهودي: السابق جـ٤ ص ٧٧ .

(٥) وراجع أيضًا: السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٣٩ للوقوف على مساجد أخرى مجددة زمن المماليك .

(٦) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ٥٨، والسخاوي: السابق جـ١ ص ٣٩ .

(٧) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٩٠ .

(٨) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص١٦١ .

(٩) راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص١٧٢ .

ثالثًا: عمران المدينة المنورة بالمدارس:

أقيم بالمدينة المنورة في عصر سلاطين المماليك تسع مدارس جديدة لتدريس الفقه، والحديث الشريف، وغير ذلك من ألوان الثقافة الإسلامية، وساهم السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة المملوكية، والفقهاء والأثرياء في تشييد هذه المدارس التي قامت بدور فكري واضح بالمدينة الشريفة إلى جانب مسجده الشريف وأربطته، وأبرز وأهم المدارس التي بُنِيَتْ بالمدينة المنورة في عصر سلاطين المماليك: المدرسة الجوبانية التي بناها الأمير جوبان[1] (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م إلى جوار الحرم الشريف بباب الرحمة[2].

وقد وصفها المؤرخون بأنها «مدرسة مليحة»[3]. وذكر السخاوي[4] أنه ليس بالمدينة الشريفة مدرسة ولا رباط ولا دار أحسن بناء وأتقن وأمكن وأحصن منها «مع شرف الجوار، وقُرْب الديار، وقُرب الجدار بالجدار». ومن مدرسي هذه المدرسة: عبد السلام بن محمد العز الشيخ الفقيه الفلكي[5] (ولد ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) أحد تلاميذه الإمام السخاوي.

ومن هذه المدارس أيضًا: المدرسة البنجالية التي بناها غياث الدين أبوالمظفر

---

(١) نائب السلطان التتري الإيلخاني أبي سعيد بالعراق وفارس وكان جوبان بطلاً شجاعًا، رفيع القدر عند المغول، وقام بعدة أعمال مهمة بالحرمين، منها: إيصاله الماء إلي مكة والحرم الشريف، حتى جرى الماء بها، وأصبح ميسرًا متوافرًا لا يباع، وأنفق على ذلك أموالاً جزيلة. راجع ترجمته: الصفدي: الوافي جـ١١ ص ٢٢٠ - ٢٢٢ وأعيان العصر جـ٢ ص ١٦٩، وابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ ص ١٤٠، والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٤٩ - ٢٥١، وراجع السمهودي: السابق جـ٢ ص٢٢٤ .

(٢) راجع الصفدي: الوافي جـ١١ ص ٢٢٠، وأعيان العصر جـ٢ ص ١٦٩، وابن كثير السابق جـ١٤ ص ١٤٠، والسخاوي: السابق جـ١ ص ٢٤٩، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٢٤، وعن باب الرحمة راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١، وعن أبواب الحرم جميعًا راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢١٢ - ٢٢٧ و ص ٢٤٠ .

(٣) المصادر السابقة نفسها والصفحات نفسها.

(٤) السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٤٩ .

(٥) السخاوي: السابق جـ٣ ص ١٥ .

صاحب بنجالة بالهند سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م عند باب السلام في موضع يعرف بالحصن العتيق، اشتراه الأمير غياث الدين وأقام فيه المدرسة البنجالية الغياثية[١].

وقد رتب السلطان غياث الدين بالمدرسة مُدرسين وطلبة، وجعل لها وقفًا[٢]. ومن أبرز مُدرسيها أحمد بن محمد، الشهاب بن الضياء[٣] (ت٨٢٥هـ/ ١٤٢١م) وعبد القادر المحيوي (ت٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م) وكان كالشهاب بن الضياء فقيهًا، بارعًا في القراءات، نابغًا في الحديث، والنحو، وباقي علوم الدين واللغة، وارتبط بعلاقة متينة بالإمام السخاوي[٤].

ومنها: مدرسة الفَيْرُوزابَادي العلامة الشافعي اللغوي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م) الذي كانت له داران بمكة والمدينة، فجعلهما مدرستين، وقرر بهما مدرسين وطلبة[٥].

ومنها: المدرسة الكلبرجية التي أنشأها سلطان كلبرجه بالهند: شهاب الدين أحمد سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م بالقرب من باب الرحمة، وأرسل بقنديل ضخم علق في جهة الوجه الشريف[٦]. ومن أبرز شيوخ هذه المدرسة العلامة عز الدين طاهر بن أحمد (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) الفقيه المحدث «وهو أول من ولي مشيخة الكلبرجية بباب الرحمة بشرط واقفها، وجعلها لذريته أيضًا»[٧].

ومنها: المدرسة الباسطية التي أنشأها الفقيه العلامة زين الدين عبدالباسط

---

(١) راجع المقريزي: درر العقود الفريدة جـ٢ ص ٥٠٨ - ٥١٠، والسخاوي: الضوء اللامع جـ٢ ص ٣١٣، والتحفة جـ١ ص ١٩٢، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٢٢٤ و ص ٢٢٦، وابن حجر: إنباء الغمر ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية جـ٢ ص ٣٦٨.

(٢) السخاوي: التحفة جـ١ ص ١٩٢.

(٣) السخاوي: المصدر السابق نفسه جـ١ ص ١٤٦.

(٤) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٥٣، وراجع من ص ٥١ - ٥٥.

(٥) راجع المقريزي: المقفى جـ٧ ص ٤٨٣ - ٤٨٧، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٩ ص ١٨٧، وراجع من ص ١٨٦ - ١٩٢.

(٦) السخاوي: التحفة جـ١ ص ١٦١، وراجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٢٠.

(٧) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٦٧، وراجع من ص ٤٦٦.

الشافعي سنة بضع وأربعين وثمانمائة من الهجرة[1] . ودرس فيها الفقيه القاضي عبد الباسط حتى وفاته سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م فدرس بعده فيها البرهان إبراهيم ابن القاضي فتح الدين «بورك فيه»[2] . وباشر مع تولي مشيخة الباسطية إمامة التراويح بالمسجد النبوي، ثم الخطابة به، وكان السخاوي ممن سمع خطبته وصلى خلفه[3] .

ومن أبرز من أخذ العلم بالباسطية على يد شيخها زين الدين عبد الباسط: المحدث إبراهيم بن عبد الرحمن، ابن القطان (ت ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م) وقال عنه السخاوي: «وهو خاتمة من نعرفه من قدماء المدينة»[4] .

ومنها المدرسة الأشرفية التي أنشأها السلطان المملوكي قايتباي بدًا من سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م بين بابي الرحمة والسلام، حيث أمر بشراء دور العشرة [5] ، فاشترى شمس الدين بن الزمن - المشرف على عمارة المدرسة - هذه الدور، وأقام هذه المدرسة، وجعل بها خلاوي بشبابيك كثيرة على الحرم، وتكلم المشرف مع الإمام السخاوي على أن يكون للمدرسة شبابيك على الحجرة الشريفة، فأفتى بمنع ذلك، وأبدى المحظورات الشرعية لذلك المنع، وأسست للمدرسة منارة في ناحيتها التي تلي باب الرحمة، وأقيم لها سبيل عظيم وقاعة عظيمة ورباط وفرن وطاحون ومطبخ، واشترى السلطان قايتباي لها أراضي

---

(١) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٦ وجـ٣ ص ٢١١ وفيها يذكر السخاوي أنها بنيت لأجله من أحد الواقفين، ويدعى نصيبا . وراجع السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ .

(٢) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢١٢، وراجع جـ١ ص ٨٦ .

(٣) السخاوي: السابق جـ١ ص ٨٦ ÷ ٨٧ .

(٤) السخاوي: السابق جـ١ ص٧٦، وراجع من ص ٧٥ .

(٥) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٨١، وعبد العزيز النجم: بلوغ القرى جـ١ ص ٢١٥ . ولم يذكر المراد بدور العشرة، وربما أن تكون دور العشرة المبشرين بالجنة لاسيما وأن دورهم كانت ملاصقة للمسجد عند خط رسول الله ﷺ الدور بالمدينة . وراجع عن دور الصحابة السمهودي: السابق جـ٢ ص٢٣٥ - ٢٦٩، وراجع جـ٢ ص٦٠-٦٧ ، وراجع وقف دار قبالة العشرة وقفها عنبر الموصلي أحد خدام المسجد النبوي لدى السخاوي: التحفة جـ٣ ص ٣٧٣ .

بمصر، جعلها وقفًا عليها، وعلى أهالي المدينة المنورة، وأجرى الأشرف قايتباي ماء العين الزرقاء إلى مدرسته[1] ، وذكر السخاوي[2] أن السلطان شرع في إصلاح عين قديمة، أصلها بقباء، ومغيضها عند مساجد الفتح، وتحصل فيها خير كثير، ولما استهلت سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م كانت المدرسة الأشرفية قد انتهى عمرانها فيما عدا ترخيمها، وسكن بعض خلاويها[3] . ووصلت من مصر إليها في السنة السابقة عليها أحمال من كتب العلوم الشرعية الموقوفة على هذه المدرسة، وأحمال أخرى من الحب والدقيق والقدور النحاسية اللازمة لطعام مدرسي وطلبة المدرسة[4] .

ويبدو أن فتوى المحدث السخاوي قد أخذ بها في نهاية الأمر بشأن الشبابيك المفتوحة على الحرم الشريف؛ إذ يشير السمهودي[5] إلى سدها بفصوص الأحجار، وسد طاقتها، وجعل قمريات من الزجاج في الطاقات التي لم تسد.

ومن هذه المدارس: المدرسة المزهرية المنسوبة لكاتب السر الشيخ الزيني بن مزهر الذي أنشأها سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م عند باب الرحمة من المسجد النبوي الشريف، على يد العلامة الشيخ نور الدين المحلي، وبنى كذلك رباطين: أحدهما للرجال، والآخر للنساء[6] ، وقد نزل هذه المدرسة المحدث المؤرخ السخاوي سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م كما ذكر هو نفسه[7] .

(١) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٤٢ . والتحفة جـ١ ص ٣٦ وجـ٢ ص٢٤٣ وجـ٣ ص ٤١٠، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٨١ - ١٨٣ . وص ٢٠٧ وابن طولون: مفاكهة الخلان ص ٣١ وجعل بناء المدرسة في آخر سنة ٨٨٦هـ وعبد العزيز بن النجم: السابق جـ١ ص ٢١٥، وابن إياس: بدائع الزهور جـ٣ ص١٩٦، والغزي: الكواكب السائرة جـ١ ص ٣٠٠ وراجع من ص ٢٩٨ - ٣٠١ .

(٢) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٤٢ .

(٣) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٤٨ .

(٤) السمهودي: السابق جـ٢ ص ١٠٨٣ .

(٥) السمهودي: السابق جـ١ ص ١٨١ .

(٦) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ١٠٤٠، والتحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٦، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

(٧) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٦ .

ومنها: المدرسة الزمنية المنسوبة للشمس بن الزمن (ت ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) ناظر العمارة، وتقع غربي المدرسة الباسطية عند سوق المدينة في القرن العاشر الهجري[١] . ولم تشر المصادر إلى تاريخ بناء هذه المدرسة .

ومنها: المدرسة التي بناها أحد أمراء الشام ويدعى (يازكوح) للحنفية عند باب النساء[٢] . ولم تحدد مصادرنا تاريخ عمارة هذه المدرسة .

هكذا بني في عصر المماليك تسع مدارس جديدة بالمدينة النبوية على رأسها المدرسة الأشرفية للسلطان قايتباي، وبعض مدارس الأمراء، ورجال الدولة، وغيرهم. وساهمت هذه المدارس مع ما كان موجوداً من مدارس أخرى[٣] بالمدينة في نشر الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية بفروعها المختلفة.

وكانت مدارس المدينة المنورة مسكنًا للعلماء [٤] ، والطلبة[٥] ، وغيرهم[٦] ووُقفت الكتب عليها[٧] ، بل تم تجديد بعضها على أيدي بعض الأثرياء[٨] .

وكان لهذه المدارس من يحرسها، ويقوم بأمرها[٩] . وما من شك في أن الدولة المملوكية قامت بدور مهم في الإنفاق على هذه المدارس كلها إنفاقًا يُمكِّنها من أداء رسالتها التعليمية، ودورها الثقافي.

---

(١) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص٣٦، والسمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص٢٣٩ و ٢٤٩ .

(٢) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص٢١٦ .

(٣) منها المدرسة الشهابية التي بناها الملك المظفر غازي بن الملك العادل الأيوبي للمذاهب الأربعة، وعنها راجع السمهودي: السابق جـ١ ص ٢٠٥-٢٠٦ و ص١٦٦ وجـ٢ ص٢٤٦ . وراجع التدريس بها: ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ١ ص ١٣٢ - ١٣٣. والسخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ١١١ . وعن باقي المدارس راجع: السخاوي: السابق جـ١ ص٩٤ و ١٤٦ وجـ٣ ص ٢٧٩ و ٤٦٦ .

(٤) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ١٧٧ و٤٢٤ و جـ٣ ص ٨ - ٩ و ص٢٧٩ و ص ٧٠٧ .

(٥) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ١١١ .

(٦) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٩٤ .

(٧) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٧٠ - ٧١ و جـ٣ ص ٧٠٦ - ٧٠٧ .

(٨) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٩٤ .

(٩) راجع على سبيل المثال السخاوي: السابق جـ١ ص٤٠٩ .

رابعًا: عمران المدينة المنورة بالأربطة:

تعد الأربطة من المنشآت الاجتماعية والتعليمية في آن واحد، كما تعد في المدن الثغرية من المنشآت الحربية، وقد عرفت المدينة المنورة هذه الأربطة التي آوت بعض الحجاج[١]، والمجاورين[٢]، وبعض الزائرين، وبعض الفقراء[٣]. ولعبت هذه الأربطة دورًا اجتماعيًا وآخر تعليميًا بالمدينة الشريفة، وضمت هذه الأربطة الكتب المختلفة بخزائنها، كما وقفت الأوقاف عليها، كي تؤدي دورها على أحسن وجه، وأجمل حال.

وقد أقيم بالمدينة الشريفة في عصر سلاطين المماليك أكثر من عشرين رباطًا، إضافة إلى الربط التي كانت موجودة بها قبل عصرهم[٤]. ومن الربط التي أنشئت بالمدينة النبوية عصر المماليك: الرباط الذي أنشأه ناظر جيش مصر سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م بالمدينة المقدسة[٥]. والرباطان اللذان أنشأهما ريحان الهندي أحد خدمة المسجد النبوي - للفقراء، ووصفا بالحُسْن، ووقف عليهما دورًا ونخيلاً، وبنى لهما سقاية ماء[٦]. ومنها رباط رشيد بن عبد الله السعيدي - أحد الخدام بالمسجد النبوي - وكان فقيهًا، متدينًا، يشتري كتب العلم ويقفها على العلماء، وله خزانة جيدة بها كتب قيمة، «وله رباط ودور وقفها بعد أن تعب في عمارتها وإنشائها»[٧]، وتوفي الشيخ رشيد بعد العشر والسبعمائة.

---

(١) راجع على سبيل المثال: ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ١٦٢.

(٢) راجع على سبيل المثال السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٨٩ وجـ٣ ص ٢٦٧.

(٣) راجع على سبيل المثال السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٢٣٢. وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٥٩٧ وراجع ص ٤١٠.

(٤) منها على سبيل المثال رباط السبيل، ورباط النساء وعنهما راجع السمهودي جـ٢ ص ٢١٧، وعنها راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ١٠١ و ١٦٤ و ١٦٨، ٢٨٩ وجـ٣ ص٦٣ و١٧٥ و ٢٧٩ و ٣٦٧ و ص٤٠٦-٤٠٧ و ٦٨٤. والسمهودي: السابق جـ٢ ص٢١٨ و ٢١٩ و ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٤٩.

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٧.

(٦) السخاوي: السابق جـ١ ص٣٥٢.

(٧) السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٤٧.

ومنهـا : الرباط الذي أنشئ قبل سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م عند بـاب السلام، ووقف عليـه من النخل بالمدينة أوقاف، وانتـفع المجاورون بهـذا الرباط انتفـاعًا كبيرًا[١] . ومنها الرباط الذي أنشأه الأمير جوبان (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) غربي مدرسـته[٢] . ومنها: رباط الـشيخ التسـتري، محـمد بن أحـمد (ت٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م) بالقرب من المسجد الشريف، ووصف بأنه «عش الصالحين»[٣] .

ومنها: رباط محمد بن فرج المكي الذي أنشأ رباطًا بمكة وآخر بالمدينة[٤] .

ومنها: رباطان[٥] للأشرف قايتباي بالمدينة، أحدهما كان فيما بين باب السلام، وباب الرحمة، وبنيا بعد تجديد الحرم النبوي الشريف سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م.

ومنها: الرباط الذي أنـشأه محـمد بن عمـر المحب الأنصاري (ت٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) بالمدينة [٦] زمن الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) .

ومنها: رباط ابن الزمن، محمد بن عمر (ت٨٩٧هـ/ ١٤٩١م) وأقامه بالمدينة بعد إصلاح العين الزرقاء بها، وإصلاح سقف المسجد النبوي الشريف[٧] .

ومنها الرباطان اللذان أنشـأهما ابن مزهر (ت٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م) وأحـدهما كان للرجال والآخـر للنساء[٨] . وممن سكن للرباط نزيل المدينة: إسمـاعيل بن محمد السبكي[٩] .

إلى غير ذلك من أربطة عديدة[١٠] أقيمت بالمدينة المشرفة في عهد المماليك،

---

(١) السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٦٧ .

(٢) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٢٤٠ .

(٣) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٤٧٨ وراجع عنه السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص٢١٩ .

(٤) السخاوي: السابق جـ٣ ص٧٠٦ .

(٥) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٤١٠، والسمهودي: السابق جـ٢ ص١٨٢ و ص ٢٢٤ .

(٦) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٦٩٦ وراجع من ص ٦٩٥ .

(٧) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٦٩٦ .

(٨) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٦، ووجيز الكلام جـ٣ ص ١٠٤٠، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

(٩) السخاوي: السابق : جـ١ ص ١٨٤ .

(١٠) راجع للوقـوف على باقي هذه الأربطة: السـخاوي: التـحفـة اللطيفـة جـ١ ص ٣٧ و ص١٢٧ و ١٦٣ وجـ٣ ص٥٦٧ .

كما أنه قد تم إعادة تعمير بعض الأربطة التي بنيت بالمدينة المنورة قبل عصر المماليك مثل: رباط السبيل الذي أقامه القاضي كمال الدين بن السهروردي (ت٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) فعمره محمد بن فرج المكي[١] (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م).

وقدكان هناك تنافس بين العلماء في إنشاء الأربطة والنفقة عليها[٢]، كما كان بعض التجار الأثرياء يوصون بثلث أموالهم لأربطة المدينة المنورة، ومنهم: التاجر علي نور الدين (ت٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م) وأوصى بثلث ما كان معه في المدينة الشريفة لعمارة بعض الرُبط بها، وبثلث ماله في القاهرة أيضًا لهذا الغرض[٣].

كما أنه قد تم توفير الماء الصالح للشرب في هذه الأربطة[٤]، فضلاً عن تقديم الفاكهة لكل هذه الأربطة[٥]، والطعام[٦].

ولدينا أخبار عديدة[٧] عن سكن العلماء، والمجاورين، والزائرين، وطلبة العلم، والفقراء لهذه الأربطة جميعًا، وأبرز من مات بأحد ربط المدينة المنورة من الحجاج: قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مسلم الصالحي (ت٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) الذي حج في السنة الماضية ووصل إلى المدينة ودخلها قبل الحجاج بيوم، وصلى بالحرم النبوي «وبات تلك الليلة ببعض ربط المدينة» ولما دخل الحجاج المدينة وجدوه ميتًا[٨].

وهكذا عمرت أربطة المدينة المنورة بالعلماء والكتب والوقف عليها، والوصية لها، وبالإنفاق عليها، وبرعايتها الكاملة، الأمر الذي جعلها - بطبيعة الحال- تؤدي دورها العلمي والاجتماعي على أفضل وجه.

---

(١) راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص٢٥٤.

(٢) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٥٦٧.

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٢٧٥ - ٢٧٦.

(٤) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص٢٩٧، وراجع ص ٣٥٢ وجـ٣ ص٢٦٧.

(٥) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٣١.

(٦) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٦٩٦.

(٧) راجع مصادر هامش (١٥٦).

(٨) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص١٦٢، وراجع ترجمة هذا الفقيه من ص ١٦٢ - ١٦٤.

خامساً: عمران المدينة بمشروعات المياه:

اهتم سلاطين المماليك، وأمراؤهم، وعلماء الأمة الإسلامية، وأثرياؤها بإقامة المنشآت الاجتماعية الخاصة بمياه الشرب اللازمة لأهل المدينة الشريفة من حفر الآبار، وتعمير للبرك والعيون، وإقامة العديد من السقايات بالمدينة المباركة.

ومن هذه المشروعات المتصلة بتوفير مياه الشرب للمدينة النبوية المطهرة: تجديد بئر رومة سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) على يد القاضي المكي أحمد بن محمد ابن أحمد بن أحمد أبي الفضل بن النجم الذي زار المدينة الشريفة في السنة الماضية في قافلة كبيرة، وجدد بئر رومة، ورفع بناءها على الأرض نحو نصف قامة، بعد أن خربت، ونقضت حجارتها، فجددها، مما أدى إلى كثرة مائها واستحق بذلك ثناء السخاوي، والنجم عمر بن فهد المُؤرِّخَيْن[١].

ومنها: عمارة بئر غرس سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م على يد العلامة الحسين بن أحمد بن محمد المكي، المعروف بابن قاوان الذي جاور بالمكان الشريف وعمر بئر غرس، وحوطها بحديقة موقوفة، وبنى بجانبها مسجداً[٢].

ومنها: تجديد بئر السقيا سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م على يد التاجر حسن بن إبراهيم القاهري (ت٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) الذي تكررت مجاوراته للمدينة المنورة، وقام في السنة السابقة بتجديد بئر السقيا[٣].

ومنها: عمارة العين الزرقاء، عين المدينة النبوية المكرمة أكثر من مرة، فلقد تعرضت هذه العين - التي أصلها بقباء، ومغيضها عند مساجد الفتح، وعليها اعتماد أهل المدينة في الشرب - للخراب والتغير سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م حيث

---

(١) راجع السخاوي: التحفة جـ١ ص ١٤٣ وعمر بن فهد إتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ٣ ص ٢٣٥، وراجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ١٣٩ وأثنى هو الآخر على القاضي المكي.

(٢) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٨ و ص٢٩٠. وذكر السمهودي: السابق جـ٣ ص ١٤٥ تجديد هذه البئر مرتين زمن المماليك، الأولى بعد سنة ٧٠٠هـ والثانية والأخيرة سنة ٨٨٢هـ.

(٣) السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٧١ وكانت وفاة هذا التاجر ببولاق بمصر. وراجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ١٤٠.

أمطرت المدينة فيها مطرًا عظيمًا خربت منه عدة دور، وتلف نخل كثير من هذا السيل، وأتلف هذا السيل بعض أعين المدينة المباركة، ومنها «عين الأزرق» التي عادت ملحًا أُجَاجًا، فَكُتِبَ بذلك إلى السلطان المنصور قلاوون من أجل إصلاحها[1] . ولعل السلطان قلاوون قد قام بهذا الإصلاح، وإن لم تشر إليه مصادرنا التاريخية. لكن أحد هذه المصادر أشار إلى عمارتها في أيام حكم السلطان ططر (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) على يد عمر بن محمد المعروف بابن المزلق الذي أرسله السلطان ططر بخمسمائة دينار لعمارة هذه العين بعدما خربت، وسئل الظاهر ططر في عمارتها [2] .

ثم عمرت هذه العين مرة أخرى سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م بأمر من السلطان الأشرف قايتباي، وأشرف ابن الزمن على هذه العمارة الجديدة لعين الأزرق التي حصل بها خير وفير لأهل المدينة الشريفة بعد عمارتها[3] .

كما جدد الأمير وَدِي عينًا قديمة قبلي وادي قناة بالمدينة المشرفة[4] . وجدد السيد السمهودي بئرًا عند مسجد السقيا بعد انطماس أثره[5] . كذلك كانت بئر بضاعة تؤدي دورها في إرواء أهل المدينة المنورة حتى بعد شراء الأمير شاهين

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٧٣٧ .

(٢) السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٥٩ .

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٦٩٦ ووجيز الكلام جـ٣ ص ٩٤١، والغزي: الكواكب السائرة جـ١ ص ٣٠٠ وعنده ثناء على السلطان قايتباي. وعن السقيا من العين الزرقاء راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٩٧ . وعن المشروعات الخاصة بهذه العين قبل المماليك راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٩٧ وللوقوف على سير ماء هذه العين من قباء إلى المدينة راجع السمهودي: السابق جـ٣ ص ١٤٧ - ١٥٠ وذكر أنها كانت تجري في بناء، وأنها كانت تدخل تحت سور المدينة، وأنها كانت تسقي النخل، وكان يتوضأ منها، ويشرب منها كذلك.

(٤) السمهودي: السابق جـ٣ ص ٢١٢ ، وكان الأمير ودي بالمدينة في منتصف القرن الثامن الهجري، راجع السخاوي التحفة جـ١ ص ٣٠٨، وراجع عنه المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٢ ص ٣٣٣ ، والمقفى جـ٢ ص ١٣ - ١٤، وتوفى ودي سنة ٧٥٢هـ .

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص٤٠ . وعن السيد السمهودي راجع جـ١ ص٨ و١٠١ و٢٢٥ .

شجاع الدين شيخ الخدام لها، حيث تكررت ضيافته للغرباء، وكان المؤرخ السخاوي ممن استدعاه الشيخ الأمير شاهين لها أكثر من مرة[1] .

هذا بالإضافة إلى إنشاء السقاية لأهل المدينة، حِسْبَة، وطلبًا للأجر والمثوبة الإلهية، ومنها: سقاية الماء التي بناها ريحان الهندي أحد خدمة المسجد النبوي، الذي اشتهر بحب الخير وعظيم المعروف، وبمآثره المذكورة وأعماله الكريمة[2] . وكذلك إنشاء السبل[3] .

ولم يقف الأمر عند الاهتمام بتوفير المياه بالمدينة المكرمة فحسب، بل في الطرق المؤدية إليها، فلقد عمر الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٨م) بركة كبيرة برأس وادي سالم في طريق المدينة النبوية لسقي الحجاج وغيرهم[4] .

كما أنه قد صدر أمر السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م بتجهيز الفعلة وأهل المعرفة بالبناء «لإصلاح الآبار وأماكن المياه التي في طريق الجار»[5] .

وهكذا تضافرت الجهود، وقويت العزائم، وصدقت النوايا في العمل على توفير مياه الشرب بالمدينة الشريفة، وساهم الجميع: حكامًا ومحكومين في هذا العمل النبيل.

سادسًا: عمران بيمارستان المدينة:

اعتنى سلاطين المماليك ببيمارستان المدينة النبوية الشريفة الأساسي عناية جعلته يؤدي واجبه على أكمل وجه، كما تم إنشاء بيمارستانات أخرى في بعض منازل المدينة المباركة، وأدت هي الأخرى واجبها في علاج المرضى.

---

(١) راجع السخاوي: السابق نفسه جـ١ ص٣٧-٣٨ و٤٣٨ - ٤٣٩، والسمهودي: جـ٣ ص١٣٠ . ويُذكر هنا أن هناك بئرًا بالمدينة هي «البصة» كانت زمن المماليك وقفًا على الفقراء. السمهودي السابق جـ٣ ص١٢٨، وذكر أن وقفها كان سنة ٦٩٧هـ. وراجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٧ .

(٢) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٥٢ .

(٣) راجع على سبيل المثال ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٢١٩ والسمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) راجع ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ٢ ص ٥٣٣ .

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٨ ص ٢٢٧ . ط دار الكتب العلمية .

وكان بيمارستان المدينة الشريفة قد جدد على يد الظاهر بيبرس الذي أرسل إليه بعد تجديده بالأدوية المختلفة، وبعث إليه طبيبًا من مصر[١]، ويذكر ابن شداد[٢] أن السلطان الظاهر بيبرس رتب في البيمارستان الأطباء والأدوية لعلاج المرضى المقيمين والوافدين، وكانت الأدوية تحمل إلى البيمارستان في كل سنة.

ولدينا خبر[٣] عن توافر احتياجات بيمارستان المدينة سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م الأمر الذي جعله مطمعًا لبعض الناهبين، مما يثبت استمرار سلاطين المماليك في الاهتمام بالبيمارستان، وتوفير مستلزماته ومتطلباته، كما أنه لدينا خبر عن أحد أمناء البيمارستان ممن يتولون الإشراف عليه ورعايته[٤].

ومما يدل على قيام هذا البيمارستان بوظيفته في علاج المرضى في الفترات المتأخرة من حكم المماليك نزول محمد بن محمد بن ألب أرسلان السلجوقي به للعلاج ووفاته[٥] به سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م.

ويبدو أن هذا البيمارستان لم يكن الوحيد بالمدينة المشرفة، بدليل ما قام به دينار البدري أحد خدام المسجد النبوي الشريف (ت٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م) من إقامة مارستان للمرضى بمنزله، يقوم بعلاج مرضى المدينة المنورة، فما كان يمرض فقير أو مجاور أو مسافر «إلا وتبادر في الحين إلى عيادته، ويحمل إليه من الأشربة والأغذية الملوكية حسب شهوة المريض وإرادته، وإذا وصف لمريض دواء مفقود بذل في تحصيله النقود، ولا يُبقى في ذلك شيئًا من المجهول»[٦].

إن هذا الخادم العظيم جعل بيمارستان في منزله بالمدينة المنورة، وجعل من نفسه بيمارستان متنقلاً، يحمل الدواء إلى أهل الرُبط في ربطهم، وإلى المدرسين

---

(١) الصفدي: الوافي جـ١٠ ص٣٤٠.

(٢) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٣٠٠.

(٣) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٧٩.

(٤) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص٤٦١. وعن هذا البيمارستان قبل المماليك. راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢١٩. والسخاوي: السابق جـ١ ص ٣٧.

(٥) عمر بن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٣٦٠.

(٦) السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٣٤.

والطلبة في مدارسهم، وإلى الفقراء في أماكنهم، ويحمل إليهم الأطعمة المناسبة لمرضهم، ويبذل قصارى جهده في توفير ما عز من دواء، ويقوم بهذه الأمور كلها بنفسه، «ولا يستعمل في ذلك أحدًا، لا غلامه، ولا عبده، ولا يخص به معارفه، بل كان يعم به كل من كان جاهله أو عارفه»[1].

ولأن خدام المسجد النبوي الشريف كانوا يتبارون في الخير، ويتنافسون في المعروف بدليل قول السخاوي في موطن آخر: «على أن جميع الخدام في تلك الأزمان كانوا بالمكارم يتفاضلون، وبالبذل والسخاء في ميدان الإخاء يتفاضلون»[2]. وذلك في معرض ترجمته لخادم آخر عظيم[3] هو صواب، الشمس المغيثي (ت٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م) الذي اشتهر بالتقوى والكرم والبذل والسخاء.

أقول: أغلب الظن أن يكون آخرون قد سلكوا مسلك الخادم الجليل دينار المعزي البدري في إقامة المارستانات في منازلهم، وفي توفير العلاج اللازم لمرضى المدينة جميعًا من أهلها، ومن المجاورين بها أو الزائرين لمسجدها الشريف.

وهكذا فإن بيمارستان المدينة الرئيسي وجد عناية من سلاطين المماليك، وظل يقوم بوظيفته كاملة في علاج المرضى بالمدينة الشريفة، كما وجدت بيمارستانات أخرى كان لها دورها المهم في علاج المرضى بالمدينة المكرمة أيضًا.

سابعًا: عمران المدينة بمشروعات اجتماعية أخرى (تسهيل طريقها - إنشاء حمامها):

تضمنت مصادرنا التاريخية بعض مشروعات اجتماعية غير ما سبق الحديث

---

(١) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢) السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٦١.

(٣) للوقوف على خدام المسجد النبوي وصفاتهم وأعمالهم العظيمة. راجع: السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٤- ٣٦ و ٦١ و ١٤٠ و ٢٢٢ و ٣٣٢ - ٣٣٤ و ٣٤٧ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٨٢ و ٤٥٨ و ٤٥٩. وراجع الحلبي: القبس الحاوي جـ١ ص ٤٣، وعبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ١ ص ١٢٤ و ١٢٨. وراجع ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص ١٤٩. وابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٢١٩.

عنه من المشروعات المختصة بالمياه، أو تلك المتصلة بالصحة، أو ما تم تناوله من إقامة للربط التي تقوم بوظائف مختلفة، بعضها اجتماعي، وبعضها ديني، وبعضها تعليمي.

أما هذه المشروعات الجديدة فتتعلق بتسهيل طرق المدينة، وإنشاء الحمامات بها، والعمل الأول قام به العلامة محمد بن محمد بن مسعود النيساوي (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) وكان قد زار المدينة من مكة المكرمة في طريق الماشي، وسهل في طريقها أماكن مستصعبة «وفعل مثل ذلك في جبل حراء وجبل ثور، أجزل الله تعالى على ذلك ثوابه»[١].

ويُستخلص من هذا الخبر وجود طريق ممهد ميسر للمدينة المكرمة، وقام هذا العالم بإزالة بعض صعوبات فيه تحول دون السير المريح ببعض أماكن الطريق المسلوك، وهو عمل مهم للمدينة المنورة وروادها المؤمنين.

وفيما يتصل بحمام المدينة الذي أنشئ في زمن الأشرف قايتباي فإنها أنشئت بالقرب من باب السلام سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م كما يذهب السخاوي الذي ذكر أنه لم يعهد بالمدينة قط حمام، وأن أهلها كانوا في غنى عنه[٢]. ويفهم من خبر السخاوي عن هذا الحمام أنه لم يكن حماماً واحداً، بل كان داراً تضم عدة حمامات، بدليل قوله: «دار الحمام الذي أنشئ بالمدينة النبوية من جهة باب السلام»[٣].

ولدينا خبر يتصل بوقوع أحد المدنيين وهو عبد السلام بن عبد الوهاب المدني الحنفي في الحمام سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م فأصيب إصابات جعلته يمشي بتكلف على عكاز[٤].

وتبين لنا مما سبق نوع وشكل جديد لعمارة المدينة الشريفة زمن سلاطين المماليك.

---

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٣٢٢.

(٢) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٦٠. وراجع أيضاً: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٧ و جـ٣ ص ٤١٠، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٨٢.

(٣) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ٩٦٠.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ١٠.

ثامناً : عمران المدينة المنورة بالأمن والمنشآت العمرانية الدفاعية :

حرص سلاطين المماليك على توفير الأمن بالمدينة الشريفة، فكانوا يرسلون بالجند لحمايتها، ويمنعون حمل السلاح بها، واشتهر الناصر قلاوون بهذا الفكر الأمني السليم[1] ، وكانوا يرسلون مماليك صحبة الحجاج بالمدينة الشريفة عند زيارتها لحفظ الأمن بها، وكان هؤلاء المماليك المجردون لحفظ الحجاج وسلامتهم، والأمن بالمدينة لا يتركون الحجاج في أي مكان منها، وحدث أن قتل ثلاثة من هؤلاء المماليك المجردين وهم يصحبون الحجاج عند زيارة البقيع[2] سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م.

ولأن أمراء المدينة النبوية من الأشراف الاثني عشرية لم يكونوا - أبدًا - على قدر المسئولية؛ لأنهم تنازعوا كثيرًا، وقتل بعضهم بعضًا، ونهبوا المدينة كثيرًا «واستهانوا بحرمة المسجد، وارتكبوا عظائم»[3] ، فإن سلاطين المماليك كانوا يحاولون ترضيتهم والإنعام عليهم بقطائع بالشام وغيره[4] ، حتى بعد سجن بعضهم أحيانًا، وكان سلاطين المماليك يرسلون فرسانًا يتقدمهم أحد الأمراء المشهورين للتصدي للأعراب، ولاحتواء فتن أمراء المدينة الأشراف الاثني عشرية[5]

(١) راجع المقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٢ ص٥٣٣ .

(٢) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٣ ص١١٥٧، وقتلهم عدة من الأعراب .

(٣) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٢ ص ٧٢٨ . وراجع عن هذه القطائع من نهب للحجاج، واستيلاء على قناديل الحجرة الشريفة ونهبها ما تقدم فيما سبق، وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٤) راجع على سبيل المثال المقريزي: السلوك جـ٢ ص ٣٣٣ و ٣٥٦ و ٣٩٢ وجـ٤ قسم ١ ص ٧٥، والمقفى جـ٢ ص ١٣ - ١٤ .

(٥) راجع على سبيل المثال المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٣ ص ١١٧٨ و١٢١٧ . وراجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢١٩ وذكر إرسال الأشرف برسباي لعسكر تحت قيادة بكتمر السعدي لتقوية أهل المدينة. وراجع خبرًا آخر عن إرسال العسكر من القاهرة إلى المدينة المنورة بسبب فتن الأشراف الاثني عشرية، ونهبهم لقناديل الذهب والفضة بالمسجد النبوي، وسرقتهم للأكفان، وغير ذلك . السخاوي: السابق جـ٣ ص ١٧٦ - ١٧٧ وراجع ص ١٧٨ . وتجب الإشارة إلى أن الأمير عطية بن منصور بن جماز (ت٧٨٣هـ) هو الوحيد من الأشراف الذي سلم من نهب المدينة الشريفة، وقد أثنى عليه السخاوي في «التحفة اللطيفة» جـ٣ ص ١٩٧ - ٢٠١ .

تلك الفتن التي لم تكن لتسكن إلا لتندلع من جديد، وكان هؤلاء الأشراف الاثني عشرية هم النقطة السوداء - فقط - في تاريخ المدينة الشريفة الناصع في عصر سلاطين المماليك، وأدلل على هذا بما حدث سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م - على سبيل المثال فقط - من فتن بين هؤلاء الأشراف، ونهب للمدينة الشريفة، بما قاله المقريزي: «قدم الخبر بتشتت أهل المدينة المنورة وانتزاحهم عنها لشدة الخوف، وضياع أحوال المسجد النبوي، وقلة الاهتمام بإقامة شعائر الله فيه، منذ كانت كائنة المدينة فرسم بسفر الأمير بكتمر السعدي أحد أمراء العشرات إلى المدينة، فأخذ في تجهيز حاله»[١].

وقد بذل المماليك جهدًا عظيمًا في عمران المدينة المنورة بالأمن الداخلي، والقضاء على مظاهر التسيب والعنف والطمع من قبل الأمراء الاثني عشرية وعلى اعتداء بعض الأعراب عليها، وعلى أهلها واستخدامهم في الصراع بين أمرائها الاثني عشرية.

وقاموا أيضًا بعدة مشروعات عمرانية دفاعية للمدينة الشريفة، منها: عمارة سور المدينة الشريفة[٢]، الذي كان يتهدم بعضه بسبب فتن الأشراف الاثني عشرية والأعراب، وحدث بالفعل أن هؤلاء قاموا سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م بهدم مواضع من سور المدينة[٣]. ووقع شرف عمارة سور المدينة المشرفة على سلاطين المماليك.

يقول السمهودي: «ولم يزل الملوك يهتمون بعمارة سور المدينة، ويصلحون ما قد وهى منه»[٤].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٢ ص ٧٣٩.

(٢) عن بناء هذا السور، والعناية به قبل عصر المماليك راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٢١٣، والسمهودي: السابق جـ٢ ص٢١٥ و ص٢٦٩ - ٢٧٢، والبصروي: تحفة الأنام ص ٢٣٩. وفيها أن هذا السور بني سنة ٣٦٠هـ في أيام الخليفة الطائع لله بن المطيع، ثم جدده الوزير جمال الدين، وزير بني زنكي سنة ٥٨٨هـ وحفظ هذا السور أهل المدينة وماشيتهم من اعتداء بعض الأعراب ونهبهم للمدينة.

(٣) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٢ ص ٧٢٨.

(٤) السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٧٣.

ومن بين مرات تجديد هذا السور، ما حدث من تجديد له سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م في أيام الملك الصالح صالح (٧٥٢-٧٥٥هـ/ ١٣٥١-١٣٥٤م) أحد أولاد الناصر محمد بن قلاوون[١] . وما حدث من تجديد له أيضًا سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م على يد الأمير شاهين، شجاع الدين الجمالي[٢] .

وقد أنشئ في عصر المماليك خندق حول هذا السور، في إمارة سعد بن ثابت على المدينة الشريفة (٧٥٠-٧٥١هـ/ ١٣٤٩-١٣٥٠م) وذلك في سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، ومات ولم يكمله فأكمله ابن عمه فضل بن قاسم بن جماز المستقر بعده «وكان في دولته من أحسن العمال سيرة، شجاعًا وافر الحشمة، ناصرًا للسنة، قامعًا للبدعة، متخلقًا بذلك، مستجلبًا له رضا السلطنة»[٣] .

ولدينا إشارات عديدة عن وجود سور المدينة المحيط بها لحمايتها في عصر سلاطين المماليك[٤] ، ويُذكر أن السلطان قايتباي عندما حج سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م «ترجل عند باب سورها عن فرسه، ومشى على قدميه، وامتنع من دخول الحجرة الشريفة تأدبًا»[٥] .

وقد قيل عن الخطيب محمد بن عبد المعطي - المعاصر لدولة المماليك - إنه خطيب مصقع، وإذا خطب على المنبر يسمع من بطرف السوق، مع ما في السوق من اللغط، بل لو أنصت له منصت من أعلى سور المدينة سمع كلامه[٦]، كما ورد عن محاولة اقتحام أمبر المدينة السابق ضيغم بن خشرم الحسيني لها سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م ومعه كثير من الأشراف والأعراب، وأرادوا تسور سورها ليلاً[٧] .

---

(١) السمهودي: السابق جـ٢ ص٢٧٣ .

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٣٨ .

(٣) السخاوي: السابق جـ١ ص٣٨٥، وراجع حتى ص ٣٨٦ وجـ٣ ص٣٩٦ ، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٧٣ .

(٤) راجع السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٨٦ وجـ٣ ص ١٥ و ص٥٧ .

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤١١ ، والخبر نفسه لدى السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٣٠ .

(٦) السخاوي: السابق جـ٣ ص٦٥٤ - ٦٥٥ .

(٧) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٦٤ .

وللمؤرخ السمهودي حديث عن أبواب سور المدينة الشريفة في عصره، حيث ذكر أن لسورها في زمنه أربعة أبواب غير باب حصن أمير المدينة المعروف بباب السر، وهو - كما وصفه - باب عظيم كله من الحديد.

أما الأبواب الأربعة فهي: الباب الذي غربي المدينة من جهة المصلى، ويعرف بدرب المصلى، وعليه باب متقن، والباب الذي في جهة المغرب أيضًا عند رحبة حصن أمير المدينة، ويعرف بالباب الصغير. والباب المعروف بالدرب الكبير وبالدرب الشامي، والباب المعروف في شرقي المدينة ويعرف بدرب الجمعة؛ وعليه باب متقن مغشي بصفائح الحديد، وهو يؤدي إلى موضع مقبرة البقيع في المدينة الشريفة. وذكر وجود باب آخر مسدود في زمنه كان يعرف بدرب السوارقية[1].

ويُذكر هنا أن حصن أمير المدينة كان قد رُسم أيضًا مع سورها سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م على يد الأمير شجاع الدين الجمالي[2].

ولدينا إشارات في عصر المماليك عن وجود قلعة[3] بالمدينة الشريفة، منها أن الأمير جوبان صاحب المدرسة الجوبانية بالمدينة والمتوفي سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م ببغداد حمل إلى مكة فالمدينة المنورة، ووضع بقلعتها مع ابنه المتوفي ثم نزل بهما إلى المسجد الشريف، فصلى عليهما وحملا إلى البقيع فدفنا به بإذن السلطان الناصر محمد بن قلاوون[4].

ويبدو أن حفظ جثته هو وابنه كان عن طريق الثلج، فلدينا إشارة عن الثلج المستخدم لحفظ الفواكه في عصر المماليك، وهي إشارة تتصل بالسلطان الناصر محمد، وبالمدينة المنورة أيضًا، حيث إنه عندما حج سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م

---

(١) السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٣٨.

(٣) راجع ابن الجزري: تاريخ حوداث الزمان جـ٢ ص٣٥٢، والسخاوي: السابق جـ٣ ص٧٠٣.

(٤) ابن الجزي: السابق جـ٢ ص٣٥٢. وراجع عن حمله من بغداد إلى مكة فالمدينة، السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٢٤.

جهزت فاكهة الكمثرى والعنب وغير ذلك من دمشق، وحملت هذه الفاكهة على الجمال وخلفها الثلاجون بالثلج[1] .

وهذه القلعة التي وردت في بعض مصادرنا التاريخية من بناء أمير المدينة جماز بن شيخة بن هاشم (ت٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) وكان قد بني قلعة ليتحصن فيها «ويكشف منها ضواحي المدينة»[2] .

وهكذا فإن سلاطين المماليك عنوا بعمران المدينة المنورة بالأمن عن طريق سياستهم الرشيدة بالتعامل مع الأشراف الاثني عشرية، وعن طريق إرسال الجند لحفظ الأمن بالمدينة، ثم عن طريق العناية بسورها وحصنها.

تاسعًا: دور الوقف في عمران المدينة الشريفة:

وقف سلاطين المماليك وأمراؤهم، والعلماء، والتجار، وعامة المسلمين أوقافًا على مصالح المدينة كله، وكان لهذه الأوقاف دور في عمران المدينة المنورة على كافة المستويات، كما كان لهذه الأوقاف دور في الإنفاق على فقرائها، كذلك أوصى البعض بثلث تركته للمدينة النبوية الطاهرة.

وقد اختص الحرم النبوي الشريف بنصيب من هذا الوقف، منه أنه كان للأمير بلال المغيثي (ت٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) أوقاف على الحرم النبوي، وأخرى على عتقائه وذراريهم[3] .

وكان للتاجر محمد بن ليث العدوي التاجر بمدينة الخليل (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) وصية من ماله لعمارة حرم مكة، وحرم النبي ﷺ، وحرم القدس الشريف، وحرم الخليل إبراهيم عليه السلام، لكل مكان منها ثمانمائة دينار مصرية من تركته[4] . وعرف عن أحد أماكن مصر وهو (ربع الحلزون) أنها

---

(١) راجع ابن الجزري: السابق جـ٢ ص ٥٣٣ .

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المقريزي: المقفى جـ٢ ص ٤٨٢ .

(٤) الصفدي: الوافي جـ٤ ص ٣٨٠ .

كانت وقفًا على فكاك الأسرى ببلاد الفرنج، وعلى مصالح الحرمين الشريفين، ولما بَلِيَ هذا الوقت سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م وقف بديل له على الوقف السابق نفسه[١] . وكان التاجر المصري أبو بكر بن علي الخروبي كبير ورئيس التجار بمصر (ت٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) قد أوصى بأشياء كثيرة في وجوه البر والقُربات «منها للحرمين بألفي مثقالٍ ذهبًا»[٢] .

كذلك كانت هناك عدة أوقاف بمصر ينفق منها على إضاءة المسجد النبوي، وبعض هذه الأوقاف كانت تحت نظر قاضي الشافعية بمصر، وبعضها كانت تحت نظر الإمام بمصر[٣] .

ولدينا خبر ذكره ابن حجر[٤] عن وجود جزيرة بالصعيد تعرف بـ (جزيرة قاو)[٥] كانت موقوفة على الحرمين الشريفين، وأن نزاعًا دار عليها بين مستحقي الحرمين وبين أحد المستأجرين سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م وسنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م وحسم سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م بعد مجلس بإذن السلطان الأشرف برسباي، حضره القضاة الأربعة ومسئولو الوقت، وصاحب الدعوة إبراهيم السفاري، وحكم في نهاية المجلس بإبقاء الوقف بيد مستحقي الحرمين الشريفين.

كذلك كانت بمصر أوقاف ينفق منها على خدام الحرم الشريف، والحجرة الزكية، منها وقف قريتي «نقادة» و«سندبيس» بالقليوبية منذ سلطة الناصر محمد قلاوون، ثم وقف عليهم ابنه الصالح (٧٤٣-٧٤٦هـ/ ١٣٤٢-١٣٤٥م) وقفًا آخر[٦] . واستمر هذا الوقف بعد ذلك، وتحدث عنه السخاوي في زمنه، وعن المباشر له الناظر عليه في وقت المؤرخ السخاوي[٧] .

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ٢ ص٦٦٥ .

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص ١٩٧ . ط دار الكتب العلمية.

(٣) السمهودي: السابق جـ٢ ص٢٠١ .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٨ ص٤٢٤ - ٤٢٥ ط دار الكتب العلمية.

(٥) ذكر ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٣٠١ أنها تقع على شاطئ النيل الشرقي تحت إخميم.

(٦) راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ١ ص٣٥، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٣ ص٦٣٣ .

(٧) السخاوي: السابق جـ١ ص٣٥ .

وقد مر الحديث عن الوقف على كسوة الحجرة الشريفة[1] .

أما عن الوقف العام على أهل المدينة المنورة، وعلى مصالحهم فيها، فإن أشهر وقف يتصل بهذا الجانب هو وقف السلطان قايتباي لأهل المدينة، حيث اشترى بمصر أماكن بستين ألف دينار «تكون أوقافًا يحمل ريعها إلى الحضرة الشريفة»[2] .

وفصّل السخاوي[3] هذا الوقف فذكر أنه لأهل السنة من أهل المدينة والواردين عليها من كبير وصغير، وغني وفقير، ورضيع وفطيم، وخادم ومخدوم «ما يكفيه من البُر والدشيشة والخبز»، وأشار إلى أن بعض أماكن الوقف كانت تقدم سنويًا حوالي سبعة آلاف وخمسمائة إردب من الحَبِّ لأهل المدينة المنورة.

وكان هذا الوقف معروفًا منذ حكم الظاهر بيبرس، ولدى المقريزي[4] إشارة إلى أوقاف المدينة النبوية بمصر والشام سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. كما لدينا إشارة أخرى عن متولي نظر أوقاف خدام مدينة النبي ﷺ بمصر سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م وهو الأمير صفي الدين المعروف بجوهر الطواشي[5] المتوفى في السنة السابقة نفسها.

وإذا كانت المصادر لم تذكر جميع الأوقاف الموصدة لمدينة النبي ﷺ بمصر والشام خاصة، فإنها - بدون شك - كانت كثيرة بدليل الإشارات التي مر ذكرها، وما سيأتي من أخبار أخرى عن تدفق الأموال والحبوب من السلاطين والأمراء والعلماء والتجار وغيرهم على الفقراء والمجاورين بالمدينة الشريفة. بل إن هذه الأوقاف امتدت لتشمل أشراف المدينة المكرمة، وللصفدي خبر يتصل بجانب من هذا الوقف بمصر سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م وهو «ربع فَرح» واحترق

(١) راجع على سبيل المثال السمهودي: السابق جـ٢ ص١٣٩ - ١٤٠ .
(٢) السمهودي: السابق جـ٢ ص٢٣٢ - ٢٣٣ ، وراجع أيضًا جـ٢ ص ١٨٢ .
(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص٤١١ .
(٤) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٥٦٠ .
(٥) المقريزي: المقفى جـ٣ ص ١١٢ .

هذا الوقف المخصص لأشراف المدينة في السنة السابقة ضمن ثلاث وستين داراً كبيرة بالقاهرة، وكانت النيران قد اشتعلت في بداية الأمر من «حارة الباطلية» ثم امتدت إلى غيرها، فاحترق هذا الربع، وربع آخر مُطِلّ على النيل، واتهم بذلك بعض نصارى مصر[١] .

وكان للموسرين من أهل المدينة المنورة أوقافهم بها أيضًا على فقرائها ومجاوريها ومصالحها المختلفة، وأغلب هذا الوقف كان من النخل[٢] ، ومنه وقف المقرئ عبد العزيز بن زكنون (ت ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م)[٣] . وكان وقف أهل المدينة أحيانًا يتمثل في البيوت والدور، ومن ذلك الدار التي بناها بالمدينة عنبر الموصلي - أحد خدام المسجد النبوي - أمام دار العشرة ثم وقفها[٤] . ومنه الدار الحسنة التي بناها الشمس الجمداري أحد خدمة المسجد النبوي (ت٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م) وبنى داراً حسنة ووقفها «وكذا اشترى في آخر عمره نخلاً جيداً ووقفه إلى غير ذلك من الأوقاف»[٥] .

ومنه وقف الخادم بالمسجد النبوي دينار الذي وقف أملاكًا ما بين نخيل ودور، وأعتق من الإماء والعبيد زهاء الثلاثين، وكفل جماعات من الأرامل والأيتام وعمهم بالإنعام، ورتب لهم الشراب والطعام والمسكن والملبس والمقام[٦] .

والحق أن جل خدام الحرم الشريف كانت لهم أوقافهم بالمدينة على فقرائها ومجاوريها ومصالحها المتعددة[٧] ، وشاركهم في هذا العمل النبيل بعض التجار[٨] وغيرهم.

---

(١) الصفدي: الوافي جـ١٠ ص ٣٢٤، وراجع حتى ٣٢٥ .
(٢) راجع على سبيل المثال: السخاوي جـ٣ ص ٦١ و ص ٢٦٧ وراجع جـ١ ص ٤٥٩ .
(٣) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٥ .
(٤) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٣٧٣ .
(٥) السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٥٩ .
(٦) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٣٢ و ٣٣٣ .
(٧) راجع أيضًا السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٢٢ و ٣٥٢ .
(٨) راجع على سبيل المثال: السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٧٥ .

ولم يقتصر الوقف على المال والعقار والزرع فحسب، وإنما شمل الكتب الدينية، وغيرها، بدليل أن المحدث العظيم والمؤرخ الكبير السخاوي عندما توفى سنة (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) كان قد ترك وصية بخطه ذكر فيها أنه لا يملك إلا ثلاثين ديناراً، وأنه وقف بعض كتبه بمكة، وبعضها بالمدينة، وجعل مقرهما في وصيته بمدرستي السلطان الأشرف قايتباي بمكة والمدينة، وجعل الناظر على وقف كتبه بالمدينة السيد نور الدين علي السمهودي[١] المؤرخ المشهور، والشيخ العلامة المعروف، وكانت الوصية قد تحققت ووُقفت كتب السخاوي كلها بمكة والمدينة.

وممن وقف كتباً بالمدينة الشريفة المعماري «بهادر»، ووقف بها كتباً كالصحيحين[٢]، وأحمد بن يحيى بن الحسين الأنصاري الذي كتب نسخة بيده من تفسير القرطبي، ووقفها بالمدينة سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، وجعل النظر لعبدالسلام بن سعيد القيرواني[٣]. والفقيه العالم إبراهيم بن رجب (ت ٧٥٥هـ/ ١٣٥٩م) نزيل المدينة الشريفة، ووقف كتباً نفيسة بالمسجد النبوي، وأخرى بالمدرسة الشهابية، ومنها كتب في الفقه، والأصول، والحديث، واللغة وغيرها[٤].

وممن وقفوا كتباً بالمدينة أيضاً: محمد بن عمر الهندي الأصل المدني وقف نسخة من «طبقات الحنفية» للشيخ عبد القادر سنة (٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م)[٥]. والسلطان جلال الدين شاه شجاع بن المظفر سلطان بلاد فارس (ت٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)، ووقف كتباً بالحرم النبوي[٦]. والعلامة محمد بن فرحون التونسي

---

(١) عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ٢ ص ١٠٠٤ - ١٠٠٥.

(٢) السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٢٢ ويذكر هنا أيضاً أن سلاطين العثمانيين كان لهم اهتمامهم بإرسال المال للحرمين الشريفين. راجع الغزي: الكواكب السائرة جـ١ ص ١٢٤. وابن العماد: شذرات الذهب جـ١ ص ١٢٤.

(٣) السخاوي: السابق جـ١ ص ١٥٧.

(٤) السخاوي: السابق جـ١ ص ٧٠.

(٥) السخاوي: السابق جـ٣ ص٦٥، وراجع خبراً آخر لدى السخاوي جـ٣ ص ٢٣٣.

(٦) السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٣٧.

الأصل، الذي قدم المدينة وسكن المدرسة الشهابية منها، ووقف بها نسخة من كتاب «الروضة» للإمام النووي[1] .

كذلك أرسل السلطان قايتباي من مصر سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م إلى مدرسته بالمدينة أحمالاً من كتب العلوم الشرعية، موقوفة بالمدرسة الأشرفية، وأحمالاً كثيرة من الحَبّ والدقيق والقدور النحاسية[2] .

ويبدو أن بعض الواقفين كانوا يقفون مكتبات تضم الكثير من الكتب، ويجعلون هذه المكتبات (خزائن الكتب) في أماكن خاصة بها موقوفة هي الأخرى، فلقد كان لرشيد بن عبدا لله السعيدي أحد الخدام بالمسجد النبوي (ت بعد ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) خزانة كتب جيدة، كان فيها كتب غربية نادرة، بعضها في العلوم التجريبية، وبعضها في العلوم العربية. وكان مولعًا بشراء الكتب ووقفها بخزانته التي كان المؤرخ السخاوي يعرفها، ويعرف الحي الذي به من أحياء المدينة الشريفة، كما كان للخادم رشيد رباط ودور موقوفة بالمدينة وقفها بعد أن تعب في عمارتها وإنشائها[3] .

كذلك كان لأيوب المغربي مكان موقوف بالمدينة، وقف عليه بعض الكتب سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م[4] . وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من وقف خزائن للكتب بالمدينة النبوية المطهرة إضافة إلى وقف الكتب بمسجدها العامر الشريف، وبمدارسها العديدة.

وبالإضافة إلى ما سبق الحديث عنه من أوقاف على المدينة الشريفة، وعلى أهلها من الفقراء والمجاورين وغيرهم، فإن هناك ألوانًا أخرى من الاهتمام بفقرائها ومجاوريها ماليًا، منها ما كان يرسله السلاطين سنويًا أو يوميًا من الطعام أو المال، وما كان يقدم لأهلها عند زيارة السلاطين والأمراء لها.

---

(١) السخاوي: السابق جـ٣ ص٧٠٧ .

(٢) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ١٨٣ .

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ١ ص ٣٤٧ .

(٤) السخاوي: السابق جـ١ ص ٢١٠ .

وينسب إلى السلطان الظاهر بيبرس - على سبيل المثال - أنه كان يرسل إلى المدينة الشريفة في كل سنة قمحًا ودقيقًا يفرق على ضعفائها ومساكينها من أهلها، وعلى المجاورين بها[١] أما السلطان الظاهر برقوق، فإنه كان يبعث في بعض السنين قمحًا وفي بعضٍ ذهبًا ليفرق بالحرمين الشريفين «بل عمر فيها أماكن شريفة»[٢] . كما كان الملك الظاهر جقمق قد قدر لأهل الحرمين «دشيشة للفقراء في كل يوم»[٣] . وذُكر عن الأمير علاء الدين طيبرس الركني (ت٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) أنه كان له بالمدينة النبوية آثار فاضلة[٤] . ويذكر أن هذا الأمير كان ثريًا معتنيًا بتربية الخيول، وببيعها، وحقق أرباحًا طائلة من هذا العمل، كما كان للأمير جركس بن عبدالله (ت ٩٧١هـ/ ١٣٨٨م) بمصر صدقاته على الفقراء بمكة والمدينة[٥] .

وهناك وظيفة كانت معروفة في زمن المماليك هي وظيفة «مباشر أوقاف الصدقات بالمدينة» وممن تولاها: المحدث سليمان بن أحمد المغربي (ت٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م) وكانت سيرته مشكورة، وقد سمع منه بالمدينة الشريفة شيخ المحدثين ابن حجر العسقلاني[٦] .

وممن كان لهم وقف ووصية بأهل المدينة الأمير شيخ نائب الشام (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) الذي وقف جميع أملاكه على ذريته، وعلى جهات بِر منها: مائتا قميص تحمل في كل سنة إلى مكة والمدينة، مربوط على كل قميص عشرة دراهم فضة، تفرق في الفقراء، ومنها مبلغ ينفق على عشرة أيتام في كل من الحرمين وعلى مؤدبهم الذي يقرئهم القرآن الكريم[٧] .

---

(١) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٣٠٠ .

(٢) السخاوي: السابق جـ١ ص ٢١٢ .

(٣) عمر بن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٦٧٠ وراجع من ص ٦٦٨ .

(٤) الصفدي: الوافي جـ٩ ص ٤٨٥، والمقريزي: المقفى جـ٤ ص ١٢ - ١٣ .

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص ٤٦٤ بتحقيق د. محمد أحمد دهمان ط دمشق .

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٤ ص ١٦٤ ط دار الكتب العلمية، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٩ ص ٣١ .

(٧) راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم ٣ ص ١١٥٩، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ٢ ص ٧١٨ .

واشتهر بعض التجار بالاهتمام بفقراء المدينة المكرمة، منهم التاجر العطار بباب السلام بركوت بن عبد الله الحبشي (ت ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م)، وكان مشهوراً ببذل المال العظيم لأهل الحرمين، وتقديم البر لهم[١] . والتاجر حسن بن محمد الطاهر نزيل مكة (ت٨٧١هـ/ ١٤٦٦م)، وقيل عنه: «بلغ الغاية في المعرفة بأمور التجارة، ويصل أهل الحرمين وكل عام ببر وصدقة من ذهب»[٢] .

وكان موسم الحج وزيارة المدينة المطهرة ميداناً يتبارى فيه أهل الخير في إسعاد فقراء المدينة الشريفة. وجرت العادة أن يُجهز مال من حاضرة دولة سلاطين المماليك بالقاهرة مع الحاج إلى مكة والمدينة، تحت إشراف قاضي القضاة[٣] . كما كان سلاطين المماليك يفرقون المال في فقراء مكة والمدينة، ومن ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي حج سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م وفرق على فقراء المدينة عشرين ألف دينار كما فعل في مكة[٤] . ومنه تفريق السلطان قايتباي بالمدينة الشريفة أكثر من ستة آلاف دينار عندما زارها في رحلته للحج سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م وتفريقه بمكة أكثر من هذا المبلغ[٥] .

ومنه إعطاء الأمير بكتمر الجوكندار (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) المجاورين بالحرم في زيارته له الذهب والقمصان والقمح[٦] ، وتقديم الأمير عنبر الطواشي خيار الملابس وأحسنها للخدام المقيمين بالمدينة[٧] . ومنه مواساة التاجر إبراهيم بن محمد بن مصلح (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) لأغنياء وفقراء المدينة، وتقديم المال لهم[٨] في أثناء زيارته للمدينة الشريفة.

---

(١) عمر بن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٦٥٥ - ٦٥٦، وراجع من ص ٦٥٤ .

(٢) عمر بن فهد: السابق جـ١ ص ٦٩٥ .

(٣) المقريزي: السلوك جـ٤ قسم ١ ص١٤٨ .

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص ٤٥٠ .

(٥) السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٣٢ .

(٦) الصفدي : الوافي جـ١٠ ص ١٩٩ .

(٧) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٣٧٢ .

(٨) راجع عمر بن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٦٢١ .

وهكذا عمرت المدينة المنورة بالكتب، والمدارس، والربط، والسقايا، وغير ذلك من مظاهر العمران، وكان للوقف دور في هذه العمارة، كما كان له دور في الإنفاق على فقرائها ومجاوريها، وفي تلبية احتياجاتهم المعيشية، ومتطلباتهم الدنيوية.

عاشراً وأخيراً: مظاهر وملامح عمران المدينة الشريفة:

تعددت المظاهر الدالة على عمران المدينة الشريفة في عصر سلاطين المماليك، وتنوعت دلائل ملامح هذا العمران، حيث إن المدينة الشريفة شهدت توسعًا كبيراً، وامتداداً عظيمًا من جهة المغرب بصفة خاصة، حيث كثرت البيوت المبنية في هذه الجهة، حتى إنه لما بنيت المئذنة الرابعة للمسجد النبوي الشريف سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م بأمر من السلطان الناصر محمد بن قلاوون توسطت المدينة المنورة، وذكر رئيس المؤذنين محمد بن إبراهيم أنه لو تركت له هذه المئذنة لكفت المدينة المشرفة[١].

وقد أشارت مصادرنا التاريخية إلى بعض الدور والبيوت العظيمة التي بنيت بالمدينة في عصر سلاطين المماليك، منها الداران العظيمتان اللتان بناهما عطا الله الشمسي (ت٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) وشفيع الكرماني وأنفقا عليهما مالاً عظيمًا، وتعبا فيهما كثيراً[٢]. ومنها: البيت الذي بناه عبد القادر بن عبداللطيف المحيوي المكي (ت٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م)، وأنشأ بكل من الحرمين بيتًا[٣]. إلى غير ذلك من بيوت بنيت بالمدينة المشرفة في هذه الفترة[٤]، واتسعت بها المدينة المكرمة.

وانتشرت المزورعات في المدينة المطهرة، حتى إن غالب عيش المدينة المنورة

---

(١) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٤٥٧، والسمهودي: السابق جـ٢ ص ١٠٠.

(٢) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ١٩٠.

(٣) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص٥٥.

(٤) راجع أيضًا عنها السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٢٤ و ٢٣٣ و ٣٧٣ و ٤٤٩ و ٤٧١ و ٥٣٠ وراجع الفاسي: العقد جـ٢ ص٤١٣.

كان من زرعها[١] . ومعنى هذا تحقيق الاكتفاء الذاتي من المزروعات التي يعتمد عليها أهل المدينة في طعامهم. وقد تحدث ابن بطوطة عن الزراعات التي رآها بالمدينة في رحلته إليها زمن حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذكر ابن بطوطة حدائق النخيل في طريق مسجد قباء[٢] . وما يتمتع به وادي الصفراء[٣] من ماء ونخيل وبنيان، وقرى متصلة[٤] . وقد تحدثت مصادرنا التاريخية عن نخل المدينة المنورة[٥] ، وعن نخل ضواحيها[٦] ، وذكرت بعضًا ممن يملكون أملاكًا نفيسة من الدور والنخيل ومنهم: عبد العزيز الجبرتي «وصار له في المدينة أملاك نفيسة من دور ونخيل»[٧] ، وكان متصلاً بالناصر محمد بن قلاوون. ومنهم شيخ العمريين على بن مطرف (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) وكان شيخ جماعة من العمريين ينتسبون لعمر بن الخطاب، ولهم بالمدينة الشريفة شوكة، وحرمة، وكلمة نافذة وهم أهل حشمة وعبيد وأتباع «وأملاك عظيمة بالمدينة وكانوا نصرة لأهل السنة»[٨] .

ومن هؤلاء: محمد بن عبد العزيز الشمس الجبرتي (ت٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م) الذي «ملك الأملاك الحفيلة من النخيل والدور» بالمدينة الشريفة[٩] . وعلي بن

---

(١) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٧٠٩ .

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص ١٤٤ .

(٣) عن هذا الوادي راجع ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٤١٢ وتحدث ياقوت عن نخيل وخير وزرع هذا الوادي، وعن عيونه. وراجع جـ٥ ص ٨٢ - ٨٨ للوقوف على نخيل وزروع وآبار المدينة كلها. وراجع عن ذلك أيضًا القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٤) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص ١٤٨ .

(٥) راجع على سبيل المثال السخاوي: السابق جـ١ ص ١٤٠ وجـ٣ ص ٢٥ و ٦١ و ٢٦٣ و ٢٦٧ و ٢٧٣ وراجع عمر بن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ١٢٠ .

(٦) عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ٢ ص ١١٧٥ .

(٧) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٤٦ .

(٨) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٦٢ .

(٩) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٦٤٨ .

عمر الأسدي (ت٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) واشترى بالمدينة أملاكًا[١]. ومنهم محتسب المدينة المعظمة: علي بن يوسف الأنصاري (ت٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م) وكانت له حديقتان، إحداهما بالعالية[٢] والأخرى بقباء[٣].

وهكذا كثرت الأخبار[٤] الدالة على شراء الدور والنخيل والحدائق مما يدل على عمران المدينة المنورة بالزراعة.

ولدينا إشارة عن الأمير شاهين، شجاع الدين الجمالي الذي «نمت أمواله بحدائق اشتراها»[٥]. وكان تنزه البعض بالمدينة الشريفة بهذه الحدائق، لاسيما الحدائق الموجودة عند مسجد قباء، واشتهر القاضي عبد القادر بن عبد اللطيف المحيوي الحسيني (ت٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م) بالتنزه بهذه الحدائق[٦]. وقد اشتهر التمر البَرْني كأجود تمور المدينة المشرفة[٧].

كذلك أثري تجار المدينة الشريفة ثراء ملموسًا جعلهم يشترون الدور والنخيل، وتقبل عليهم الدنيا بخيرها الواسع[٨]. ولدينا خبر عن العلامة محمد ابن محمد، ضياء الدين الحنفي (٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) الذي أقام بالمدينة الشريفة «يدرس، ويفتي، ويتاجر» وكان كثير المال، فطلب أميرها جماز بن منصور[٩] منه مالاً فامتنع الضياء، فسجن بالقلعة ثم أفرج عنه، غير أن داره بالمدينة

---

(١) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٤٣.

(٢) عنها راجع السمهودي: السابق جـ٤ ص ١١٢.

(٣) السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٧٣.

(٤) راجع أيضًا السخاوي: السابق جـ٣ ص ١١٤ و ٣٤٥ وراجع عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ١ ص ٢١٤.

(٥) السخاوي: السابق جـ١ ص ٤٣٩.

(٦) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٥٤.

(٧) راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص٤١٣. وراجع عن تمر المدينة المقريزي: المقفى جـ٧ ص ٢١٦، وعن سعره في بعض الفترات راجع ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ١١٢.

(٨) راجع السخاوي: السابق جـ٣ ص ٢٢٣ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٦٩٦.

(٩) راجع ترجمته لدى السخاوي: السابق جـ١ ص ٢٤٦.

الشريفة تعرضت للنهب، فوجد بها - فيما قيل - أربعمائة ألف درهم[١] .

ولدينا إشارات عن سوق المدينة الشريفة[٢] ، وعن التجار بها الذين كانوا يتجمعون في مكان خاص بهم بحسب ما يبيعونه، أي: إن ظاهرة تخصيص أسواق معينة داخل السوق الواحدة كانت معروفة بسوق المدينة الشريفة، بدليل ورود أخبار عن «أصحاب الفاكهة»[٣] و«سوق العطارين»[٤] . و«سوق الصواغين»[٥] . وقد اشتهر العلامة أحمد بن يونس بن سعيد (٨٧٨هـ/ ١٣٧٦م) بمخالطة هؤلاء الباعة والسوقة[٦] .

ومن مظاهر العمران كذلك حدوث رخاء ورخص للأسعار في معظم سني حكم المماليك باستثناء سنوات اشتداد الغلاء بالمدينة الشريفة لأسباب خارجة عن إرادة المماليك منها - كما سيأتي- إفساد الجراد لزرع ونخيل أهل المدينة[٧] أو حدوث غلاء بسبب فتن الأشراف ومنازعاتهم وحصار بعضهم للمدينة الشريفة[٨]، وفيما عدا ذلك فإن حالة المدينة الشريفة العامة كانت رخية، «يغبط أهلها على سكناها من العافية، والأمن العظيم، وسلامة الناس في أنفسهم وأهليهم وأموالهم»[٩] .

---

(١) راجع الفاسي: العقد الثمين جـ٢ ص ٢٩٢، وابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص ٢١٦ ط دمشق بتحقيق محمد أحمد دهمان، وابن العماد: شذرات الذهب جـ٨ ص ٤٦٣ .

(٢) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٣٩ وص ٢٦٦ وجـ٣ ص١٤٨ ووردت إشارات عن دكاكين المدينة، راجع السخاوي جـ١ ص ١٤٠ .

(٣) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٥٥ .

(٤) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٤٨ .

(٥) راجع السمهودي: السابق جـ٢ ص ٢٤٠ و ٢٤٨ .

(٦) السخاوي: السابق جـ١ ص ١٦١ ، وعمر بن فهد: الدر الكمين جـ١ ص ٥٧٨ .

(٧) راجع على سبيل المثال: المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٧٣٧، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٨ ص ٩ ط دار الكتب العلمية، والسخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٢٥٥، وراجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ١٧٩، وابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم ٢ ص ٨٠٣ .

(٨) راجع على سبيل المثال: المقريزي: المقفى جـ٢ ص ١٣ - ١٤ .

(٩) هذا الوصف وصفت به المدينة الشريفة في أثناء ولاية الأمير عطية بن منصور (ت٧٨٣هـ) وهو كما سيظهر في المتن وصفها في معظم فترات حكم المماليك. راجع السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ ص ١٩٨ وراجع من ١٩٧ - ٢٠١ .

ومن أبرز فترات رخاء المدينة الشريفة، ورخص أسعارها، الرخاء الذي عمها سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م وعبر عن ذلك ابن الجزري بقوله: «السعر بالمدينة في غاية الرخاء»(١) . ونتيجة لهذا الرخاء ورخص الأسعار كثر المجاورون بمكة وبالمدينة كثرة لم يسمع مثلها(٢) . وحدث رخاء مماثل بالمدينة سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م أتبعه رخص شديد في كل شيء، في التمر، واللحم، وغيرها، وهذا الرخص والخير الذي حدث في السنة السابقة «ما جرى من زمان»(٣) .

وحدث رخص آخر سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م، بيع فيه رطل اللحم بنصف درهم(٤) .

وفي سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م أمطرت المدينة النبوية بغيث عظيم «لم يتفق مثله من سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م بحيث أخصبت هي وما حولها، وعم الرخاء سائر الجهات والنواحي، ورخصت الأسعار بذلك جدًا»(٥) .

وكذلك في سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م ويذكر فيها السخاوي(٦) أنه جاءه بمصر كتاب من المدينة النبوية في العشر الأخير من رمضان ومؤرخ بثانيه، وفيه أن المدينة الشريفة في غاية الرخاء في التمر والسمن والعسل واللحم «وأن الحب بلغ من شأنه أن جالبه يرجع به لعدم محتاج إليه».

وحدث رخاء بالمدينة أيضًا سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م حيث كانت أحوالها في هذه السنة طيبة، وأسعارها في الحَبِّ رخية(٧) .

أما أبرز سني الغلاء بسبب السيول والجراد فمنها سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، وفيها

---

(١) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ٢٥٧ .
(٢) ابن الجزري: السابق والصفحة نفسها.
(٣) ابن الجزري: السابق جـ٣ ص ٦٧١ .
(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٣ ص ٣٣٥ ط دار الكتب العلمية .
(٥) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص١١٢١ .
(٦) السخاوي: وجيز الكلام جـ٣ ص ١١٩٥ .
(٧) عبد العزيز بن النجم: بلوغ القرى جـ٣ ص ١٤٦٩ .

أمطرت المدينة الشريفة مطرًا شديدًا، أتلف كثيرًا من النخل، وظهر عقيب ذلك جراد عظيم «صار له دوي كالرعد، فأتلف التمر وجريد النخل، وغيره من المزارع»[١] .

ومنها سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م وحصل بالمدينة الشريفة غلاء شديد بسبب أكل الجراد لثمار المدينة، وبيع الصاع من القمح بثمانية عشر درهمًا، وافتقر جماعة من الناس، وبسبب أكل الجراد لكثير من ثمار المدينة، فإن من كان يظن أنه سيجني مائتي صاع تحصل على ثلاثة آصع فقط[٢] .

ومن سنوات الغلاء أيضًا التي لم يكن لسلاطين المماليك دور فيه سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م حيث قدم إلى المدينة النبوية المباركة جراد عظيم أتلف عامة زروعها وأشجارها، وقاسى أهل المدينة من هذا الجراد شدة عظيمة[٣] .

كذلك تعرضت المدينة الشريفة في بعض السنوات للقحط[٤] والأوبئة[٥] وتبع ذلك غلاء أيضًا.

وأخيرًا، فإن فتن وتنازع الأشراف الاثني عشرية على إمارة المدينة، كان له تأثيره السيئ على اقتصاديات المدينة الشريفة[٦] .

وفيما عدا ذلك فإن أحوال المدينة الشريفة المعيشية كانت ميسرة، رخية، طيبة، كطيب مسجدها وثراها وأهلها.

ومما سبق يتبين لنا ما تمتعت به المدينة الشريفة في عصر سلاطين المماليك من عمران تناول أوجه الحياة فيها، وما نعمت به من أمن وسلام ورخاء، فضلاً عما حظيت به من هدى وصلاح، وما ازدانت به من نور وإيمان وتقى.

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٧٣٧ .

(٢) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ١٧٩ .

(٣) راجع المقريزي: السلوك جـ٤ قسم٢ ص ٦٣٣، وابن حجر: إنباء الغمر جـ٨ ص ٩ ط دار الكتب العلمية.

(٤) راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ٢٥٥ .

(٥) راجع ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان جـ٣ ص ٧٥٤ و ٧٥٨، والمقريزي: السلوك جـ٢ قسم ٢ ص ٣٧٤ و ص ٣٨٧ .

(٦) راجع على سبيل المثال: المقريزي: المقفى جـ٢ ص ١٣ - ١٤ .

الخاتمة

تشرف كل سلاطين المماليك - تقريبًا بعمل بالمدينة المباركة يفتخرون به، ويعتزون بآثاره الطيبة على المدينة المطهرة، وبعض هؤلاء السلاطين زاد في الحرم النبوي زيادات، وبعضهم ساهم في إعادة بناء بعض أجزاء الحرم الطاهر، وبعضهم شارك في تعمير المدينة المشرفة تعميرًا بالناحية التعليمية أو الصحية أو الأمنية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، أو غير ذلك، وقد زاد عمران المدينة المعظمة في أيامهم من الجهة الغربية زيادة ملحوظة، وزاد الإقبال على سكنى المدينة المنورة في عهدهم، إذ غبط ساكنو المدينة الشريفة لما يتمتعون به من العافية والأمن والسلامة والرخاء، وقبل ذلك كله لما يحظون به من جوار كريم طيب مبارك.

وأبرز سلاطين المماليك أثرًا بالمدينة الكريمة الأشرف قايتباي الذي شرف بالقيام بأعمال عديدة بالمدينة المكرمة تناولت مسجدها المعظم أو اختصت بجوانب عمرانية أخرى بالمدينة الطيبة حتى قيل له: «أما تترك لمن بعدك شيئًا يذكر به؟».

وأبرز البلاد التي ساهمت في عمران المدينة المؤمنة مصر التي وقفت بعض قراها على الحرم الآمن وعلى المدينة الآمنة، والتي شارك بناءوها ومُرَخِّموها وعمالها في أعمال العمران بالحرم الطاهر أو بالمدينة المنورة، بل كان عالماها: السخاوي والسمهودي شاهدي عيان على ما تم من عمران بالمدينة النبوية، وشاركا في بعض الأحداث المتصلة بها في عصر المماليك، ودونا ذلك بكل دقة وأمانة في كتابيهما المختصين بالمدينة المختارة.

ولأن المدينة الجليلة لا تختص بفئة من الناس دون غيرهم، ولا طائفة من المسلمين دون سواهم، فإن كل طوائف المسلمين في كل مكان حرصت على المشاركة في عمران المدينة المبجلة بما تستطيع عمله، وتقدر عليه، ومن ثم كان للأمراء والعلماء والعامة مجهوداتهم الطيبة في عمران المدينة الزكية على ساكنها أفضل السلام، وأعظم الصلوات.

المصادر

ابن إياس: (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م):

١- بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق: محمد مصطفى. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢- تحفة الأنام في فضائل الشام. تحقيق: عبد العزيز فياض. ط أولى ١٤١٩هـ/ ١٩٨٨م. دار البشائر، دمشق.

ابن بطوطة: (محمد بن محمد ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م):

٣- رحلة ابن بطوطة: دار الكتب العلمية. بيروت. شرح طلاب حرب.

ابن الجزري: (محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م):

٤- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

ابن حجر العسقلاني: (أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م):

٥- إنباء الغمر بأنباء العمر. طبعة دار الكتب العلمية. وطبعة أخرى بتحقيق أستاذي: د. حسن حبشي، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، وطبعة ثالثة جـ١ بتحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان، دمشق.

ابن الحمصي (أحمد بن محمد ت ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م):

٦- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

زين الدين الحلبي: (عمر بن أحمد ت ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م):

٧- القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي. تحقيق: حسن إسماعيل وخلدون حسن. دار صادر، بيروت.

السخاوي: (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م):
٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. دار مكتبة الحياة، بيروت.
٩- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام. تحقيق د. بشار عواد وعصام الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
١٠- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، جـ٢ وجـ٣، تحقيق الأستاذ محمد حامد الفقي، ونشر أسعد طرابزرني ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
السمهودي: (نور الدين علي بن أحمد ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م):
١١- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. دار الكتب العلمية، بيروت، باعتناء خالد عبد الغني ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):
١٢- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل. دار إحياء الكتب العلمية.
أبو شامة: (عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م):
١٣- الذيل على الروضتين. دار الجيل، بيروت.
ابن الشحنة: (محمد بن محمد ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م):
١٤- روض المناظر في علم الأوائل والأواخر. تحقيق: سيد مهني. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
ابن شداد: (عز الدين محمد بن علي ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م):
١٥- تاريخ الملك الظاهر. تحقيق: أحمد حطيط. نشر فرانز شتاينر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
الصفدي: (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):
١٦- الوافي بالوفيات: تحقيق مجموعة من المحققين.
١٧- أعيان العصر وأعوان النصر. تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

ابن طولون: (محمد بن علي ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م):

١٨- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

ابن عبد الظاهر: (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م):

١٩- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق: د. عبد العزيز الخويطر، الرياض .

ابن العماد: (أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ):.

٢٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب . تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط. دار ابن كثير، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٩٢م .

العيني: (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١):

٢١- عقد الجمان في تاريخ الزمان. تحقيق: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الغزي: (نجم الدين محمد بن محمد ت ١٠٦١هـ):

٢٢- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الفاسي: (محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م):

٢٣- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. تحقيق: فؤاد سيد والأستاذ محمد حامد الفقي ود. محمود الطناحي، مطبعة السنة المحمدية.

ابن فهد: (عمر بن فهد، النجم ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م):

٢٤- إتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ٤ تحقيق د. عبد الكريم باز . مركز إحياء التراث الإسلامي ، مكة المكرمة .

٢٥- الدر الكمين بذيل العقد الثمين. تحقيق: عبد الملك دهيش . مكتبة الأسدي بمكة المكرمة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

ابن الفوطي: (كمال الدين أبو الفضل ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٦م):

٢٦- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة. تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

القلقشندي: (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

٢٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشا. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥م .

ابن كثير: (إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م):

٢٨- البداية والنهاية، مكتبة المعارف. بيروت .

المقريزي: (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م):

٢٩- السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق: د. محمد زيادة و د. سعيد عاشور. دار الكتب المصرية .

٣٠- المقفى تحقيق الأستاذ محمد اليعلاوي . دار الغرب، بيروت .

٣١- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة . دراسة وتحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب ، بيروت، لبنان ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

ابن النجم: (عبد العزيز بن النجم بن فهد ت ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م):

٣٢- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق: صلاح الدين خليل وآخرون، دار القاهرة بمصر ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م .

ياقوت: (ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م):

٣٣- معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت ، لبنان .

***